الباب السادس

فى نـوادر التيـس المشرقـى

والكلب الإفريقى

قال الشيخ أبو المحاسن ؛ مَنْ ماء معارفه غير آسن ، ومن لممدود أرض الفضل من فضائله رواس[1] ، وفى مشحون بحر العلم من فواضله آمن : فابتهج الملك لهذا الكلام ، وارتاح لما تضمنه من الحكم والأحكام وأستزاد أخاد من عقود هذا النظام ، فقبل الأرض فى مقام الخدام .

[٤٢] **وقال** : بلغنى يا ملك الأنام ، أن راعيا يرعى ثلة من الأغنام وحميلة من المعز الجسام وفى ماشيته تيس مطاع كلهم له أتباع ، وهو قديمها وقائدها وزعيمها وأبو نتاجها وحمو نعاجها ، وأصله من الشرق لم يكن بينه وبين إبليس فى الشيطنة فرق ، اسمه الذميم التيس الزنيم ، وكان بواسطة الفحولة والكبر والتقدم فى الحضر والسفر يستطيل ويصول ، وينطح الكباش والوعول ، ويكسر أصحاب القرون من الفحول ، فيجرح ضعيفها ويطرح نحيفها ، ويضرب بخالصها لفيفها؛ إلى أن أباد أعيانها وأعجز رعيانها وطال منه العقوق ، فخرج به صاحبه إلى السوق ليبيعه ويستريح ويخلص الماشية من شره ويريح .

فبينما هو يطوف إذ قابله قصاب مخوف طويل القامة كبير الهامة، كأنه زبنى القيامة ، شثن اليدين[2] أزرق العينين ، بثوب وسخ وطرطور سنخ[3] ، وسطه محزوم بسير مبروم ، فصدف الراعى وهو فى السوق التيس ، وقال : بكم هذا يا أبا الكَيْس ؟ فوقع بينهما الاتفاق ، ووقع الزنيم فى شبكة الرباق[4] ونظر إلى القصاب[5] وصورته القاضية بالعجاب ، فرأى رجلاً كأنه من الشياطين معلقاً فى وسطه عدة سكاكين ، فدخله الرعب ورجف من الرهب ، وأدرك بالفراسة أنه سيهلكه ويحذف رأسه ، وقال ظنى والظن يخيب

---

(١) أى فضائله ثابتة راسية .

(٢) غليظ اليدين .

(٣) متسخ .

(٤) الربقة : العروة فى الحبل . والمعنى شبكة الصياد .

(٥) الجزار .

ويصيب: إنى وقعت مع هذا فى يوم عصيب ، وأنه قاصد هلاكى ومقيم علىّ البواكى ، فالأولى الاحتراز والتأهب قبل زمان الجزّار ، فإنَ حصل خير فما فى الاحتراز ضير ، وإن وقع على الإهلاك العزم ، فأتلقى بما أعددته من ترس الحزم ، فوزن الجزار الثمن وشحط الزنيم بالرسن ، وأتى به مطابخ فقطعها إلى مسالخ[1] فشم رائحة لزهومه[2] وأحس من الجزار نكده وشومه .

فلما دخل المسلخ ورأى القصابين هذا يذبح وهذا يسلخ ، واللحم شقات على الجدران معلقات ، وأنهر الدماء كدموع العشاق جارية ، ورؤس الغنم وجلودها وأكارعها كل كاشية[3] ، هذه الكاشية فى ناحية وهذه الكاشية فى زاوية، فرجف قلبه وازداد رعبه والتجأ إلى الله تعالى وتاب عما عليه من الذنوب مالا . فما واطأ القصاب المصارع أن شد من المشرقى الأكارع وجدله على الجدالة ، وأخرج لذبحه الآلة . فلما رأى هذه الحالة تحقق ما كان ظنه فاستحضر باله وأيقن أنه هالك لا محالة ، فنظر إلى القَصاب وذكر ما قيل فى حق الساب :

نَظَروا إِلَيكَ بِأَعْيُنٍ مُحْمَرَةٍ نَظْرَ التيُوسِ إلى شِفَارِ الجَازِرِ

فوجد السكين كليلة ليس للذبح بها حيلة ، فطلب المسن ليحدها ويريح ذبيحته إن حدها ، فتركه وذهب للمُسِنّ ، وقد تحقق الزنيم ما كان ظن ، فتنفس له البلاء وارتخى عنه عقد الفضاء ، فتمطى فى رباط الأكارع فمزقه بحبل قاطع ثم وثب وقصد الهرب وخرج من الباب وصاحوا عليه هراب ، فلم يلتفت إلى الصوت ، وفر فرار من عاين الموت ، وطلب الخلاء وطريق الفضاء .

---

(١) مسالخ ، مفردها مسلخ : وهو مكان ذبح وسلخ الذبائح .

(٢) الزهم : رائحة اللحم السمين المنتن ، والمعنى أى تخيل نفسه بعد ذبحه وتعليق لحمه.

(٣) أى كل قطعة على حدة .

فأدى به الذهاب إلى بستان بجوار بيت القصاب فدخل البستان وامتد فى الجريان ، والقصاب وراءه بهيئته المهولة والسكين فى يده مسلولة ، وكان قبل هذا الزمان بين زوجة القصاب وصاحب البستان ما يكون بين الحرفاء والأخدان(١) ، وكانت كلما وجدت فرصة جعلت للبستانى من نفسها حصة ، تنزل من بيتها إلى بيته ، وتغمس سراجها من فتيلة قنديله وزيته ، فاتفق أن فى تلك الحال طلب كل من المحبين الوصال ، وكان زمان اشتغال اللحام بالمعاملة مع الخاص والعام ، فلاشتغال وهله لا يتردد فيه إلى أهله ، فاغتنمت الزوجة غفلة الرقيب ونزلت من بيتها إلى بيت الحبيب ، فكان المحبان آمنين وقد تعانقا تحت دوحة ياسمين ، فاتفق أن الهارب من الموت ودواهيه أخذ على مكان هما فيه والقصاب يتبعه رافعا يده والسكين فى يده مجردة ، فلم تشعر إلا وزوجها رافع الصوت واقف على رأسها وبيده آلة الموت ، وما شعر بدواهيهما حتى عثر عليهما ، فقفز كلاهما من مكانهما مفتضحين فى مكانهما ، فاشتغل القصاب بنفسه ، والتهى بنعجته عن تيسه، وكان الناس تابعيه فوقفوا على ما وقع فيه ، وقامت الغوغاء وقعدت للعار من البلاء فتفرس النجاة من الردى ، فلم يزل فى ميدان الجرى ذاهلا عما جرى؛ حتى وصل إلى ثغرة خرج منها إلى الصحراء فانقطع عن ذلك الجنى تابعه، ولم يوجد من شياطين الإنس رائيه وسامعه ، فانتهى به التسيار فى تلك الصحارى والقفار إلى جبل فأوى فيه إلى غار كان يأوى إليه مع المواشى أوان الأمطار ، فأمسى فيه تلك الليلة إلى وقت الأسفار :

فَلَمَا رَأَىَ اللَّيلَ العَبُوسَ صَنِيعه　　　تَبَسَمَ فَافتَرَقَتْ تَبَاشِير فَجْرِهِ

فلما أصبح الصباح خرج إلى السَّراح وهو فى نشاط ومراح ، وجعل يرتاد أنيساً ليكون له جليساً ، أو رفيقاً صالحاً أو صديقاً ناصحاً ، يتأنس به فى

---

(١) أخدان ، مفردها خدن : الحبيب والصاحب .

الغربة ويمسح بأنامل مؤانسته ثقل الكربة ، وما يحصل على جبين راحته من عرق القربة ، وبينما هو ينشر البيداء ويطوى إذ سمع نباح كلب يعوى ، فترجى الخير وزوال الضير ، ثم قصد نحوه فرآه مقبلا من فجوَةَ ، فناداه أهلا بأحب الأحباب وأعز الأصحاب المفضل على كثير ممن لبس الثياب .

فلما دنا منه بادر إلى عنقه وتباكى لأليم فراقه ، فتعانقا تعانق المحبين وتباثا مباثة من ضخمه البين[1] ، ثم قال له : اعلم يا لطيف الحركات وكثيف البركات ، إن كلاً منّا غريب ، وكل غريب للغريب نسيب ، وأنا قد تفرست فيك وما تكاد فراستى تخطيك ، إنك رفيق صالح وشفيق ناصح وأحسن مليح ممالح ، وفى طريقه إخوان الصفاء قيم وراجح ، وإن كانت الجنسية بيننا مختلفة ، لكن القلوب بحمد الله تعالى مؤتلفة . وكم لك من أياد سابقة ، وصدقات متناسقة ، وكم حططنا فى المراعى وبتنا فى الحظائر نائمين ، وأنت لحفظنا ساعى تحرسنا من الغداة إلى الرواح ومن المساء إلى الصباح ، فأخبرنى ما شأنك وأين مكانك وما اسمك وما صنعك ورسمك ، ومجيئك من أين وما حاجتك فى البين[2] ؟ .

قال أما اسمى فيسار ، وأما مكانى فبلاد التتار ، وصنعتى راعى ، وسبب مجيئى ضياعى ، ولى صاحب اسمه أقرق من دشت قفجاف بن شقرق. كنت فى خدمته راعى ماشيته ، فأضللت رعيتى وضيعت حق حرمتى، فإذا أطلب ولى نعمتى لأمحو من وصمة الجفاء سيمتى[3] ، فهذا شأنى وجل بغيتى .

قال الزنيم : أنا من حين شاهدت فى وجهك الأنوار ، علمت أنك يسار

---

(١) أى تلاقا وتعانقا مَنْ آلمه الفراق .

(٢) أى وما حاجتك يا زين الناحية ؟ .

(٣) وصفه ونعته .

وإنك معدن الذكاء والألقاب تنزل من السماء ، وأما طلبك لصاحبك ورعيتك فإنه على كمال مروأتك ولا ينكر لك الرفاء[١] ، فإن بينك وبينه الوفاء مقام الصدق والصفاء ولم يقع بينكما قط بعد ولاجفاء ، وشهرتك بحمد الله بجميل الصفات التى قلما تجتمع فى زكى الذوات ، ولا تصفو إلا للأولياء والبررة المبرزين الأصفياء من المسكنة والقناعة والجراءة والشجاعة وحفظ العهود والوفاء وكسر النفس والصفاء ، وعدم الحقد والحسد وإطراح العُجب والنكد والحراسة والسهر وقيام الليل إلى السحر ، والتودد إلى الناس حتى قال فيك ابن عباس : كلب أمين خير من صديق خؤن[٢] . وعندك من التهذيب وقبول التعلم والتأديب ما يصير صيدك مذكى وسنك كالشفرة مزكى ، وفى شأنك يا ذا الوفاء والمنفعة قال الحارث بن صعصعة :

وَمَازَال يَرْعَى ذِمَتى ويَحُوطَني وَيَحْفَظُ عُرْسِي وَالخَلِيل يحون
فَيا عَجَباً للنخـــلِ يَهتِكُ حُرْمَتي وَيا عَجَباً للكَلْــــبِ كَيفَ يَصُون

ومن هذا الضرب ما رواه أحمد بن حرب[٣] عن ذى العتاب منادم الكلاب، أن الكلب يكف عنى أذاه ويكفينى أذى سواه ، ويشكر قليلى ويحفظ مبيتى ومقيلى ، فهو من بين الحيوانات خليلى . ثم قال أحمد بن حرب : تمنيت والله أن أكون مثل هذا الكلب ، لأحوز هذه الصفات وأرقى هذه الدرجات .

وأرجو الله تعالى أن يعطفك على ويقلب قلبك ووجهك إلى ، بحيث

---

(١) الصلاح والوفاء .
(٢) خائن .
(٣) أحمد بن حرب : هو ابن فيروز ، الإمام القدوة ، شيخ نيسابور ، كان من كبار الفقهاء العباد ، من تصانيفه كتاب (الأربعين) وكتاب (عيال الله) توفى سنة ٢٣٤هـ سير أعلام النبلاء (١٨٣٥) .

ترغب فى صحبتى وتميل إلى صداقتى ، فترى إذ ذاك مِنِّى بحمد الله تعالى من الأخوة والصداقة والمروأة والرفاقة ما تنسى به كل صديق ، وتفضل به الصاحب الجديد على العتيق ، فتترك سائر أصحابك وتلتهى بى عن أعز أوليائك وأحبابك ؛ خصوصاً بنى آدم الذين أنت بهم أعلم ، من أذهبت عمرك فى خدمتهم والقيام بحقوقهم وحفظ حرمتهم ، وحراسة مواشيهم ودورهم وكمال فضلك فى حياطة بيوتهم وقصورهم ، ورعاية رعيانهم وصيانة أهلهم وجيرانهم، مع قناعتك منهم بما يفضل عنهم من كسرة خبز شعير أو عظم يابس أو فضلة مرقة قدير ، وإضاعتهم حقوق خدمتك ونسيانهم موجبات شفقتك، حتى لو وصل فمك إلى زادهم أو إلى شيء من عتيد عتادهم ، رموك بالحطب ورضُّوا[1] رأسك بالحجارة والخشب ، ولو ولغت[2] فى إنائهم أو شربت من مائهم ما قنعوا فى تنظيفه وتطهيره وتشطيفه بمرة ولا مرتين ولا اكتفوا فى إزالة لعابك بالعين ، بل دونوا الغسل بالحساب وعفروا الوعاء بالتراب[3] ويعدون ذلك من التعبد ولا يرعون مالك من تحبب وتودد . وأنا أرجو أن ترتفع منزلتك وتعلو درجتك ويساعدك رب العرش حتى تسير سلطان السباع وملك الوحوش ، وأجتهد فى هذه القضية إلى أن أبلغ هذه الأمنية ، وأكون السبب فى ذلك إلى أن تصير رئيس الممالك ، فإن لك على حقا قديما وفضلا جسيما طالما نمنا آمنين فى ظل حراستك ، ورعينا مسرورين مكنوفين بحياطتك وأجلنا منك فى الخاطر ما قال الشاعر :

بَقَاؤك فِينَا نِعْمَةَ اللَّه عِنْدنَا ... فَنَحْنُ بأوفى شُكْرَها نَسْتَدِيمَهَا

---

(١) أى كسروا رأسك .

(٢) أى شرب مافى الإناء بأطراف لسانه وحركه فيه .

(٣) حديث ولوغ الكلب فى الإناء : أخرجه الإمام مسلم : كتاب الطهارة ، باب حكم ولوغ الكلب (٩٤) وفيه : ((إذا ولغ الكلب فى الإناء فأغسلوه سبع مرات وعفروه الثامنة فى التراب)) .

قال يسار: يا أخى جميع ما قررته صحيح مقبول ، داخل فى الفضل خارج عن الفضول ، ولكن أنا من جنس السباع مجبول على ما لهم من الطباع ، ومع هذا فأنا عدوهم ، وبسببى يزول هدوهم ، وأنا لم أعادهم إلا فيكم ولا لى واد إلا فى ناديكم ، فإن تربينى وبينكم وعينى مقارنة عينكم ، وأنا إليكم أقرب منى إليهم ، ومعولى عليكم دون معولى عليهم ، وعلى هذا وجدت آبائى وأجدادى ونشأت من حين ميلادى ، والخروج عن طريقة الإباء دليل على العقوق والآباء وهو أمر مذموم وهذا شىء معلوم ، وقد قال صاحب الشرع : «الحب يتوارث والبغض يتوارث»[1] ولكن يا سليم الطباع وخصيب الرباع ، قولك : تصير سلطان السباع سخرية منى واستهزاء ، ولا أستحق منك هذا الجزاء ، فإن معنى هذا القيل أمر مستبعد مستحيل ، إن أبا طاهر نجس العين فأنى من أين ، وهذا الهوس من أين ، فإن أردت إعانتى على ذلك وتكفلت لى برياسة الممالك ، فكلانا فى هذا الهوى سواء ، وإن صممنا على ذلك فما لجنوننا دواء ، وهذا الوسواس من خيالات الإفلاس ، وفى مثل هذا الحال قال من صدق فى المقال : لا خيل عندك تهديها ولا مال. وأنا أعلم إنما تتكلم بما يطيب خاطرى ويسر سرائرى ويقربك فى الحب من ضمائرى .

قال المشرقى : لا تقل ذلك يا تقى ، فأنا شاهدت فى جبينك مخايل السيادة ومن شمائلك تقاطر السعادة ، وقد قيل يا فضيل : المرء يطير بهمته كما يطير الطير بجناحه . أما بلغك يا خير عالم ما رواه علاء الدين بن غانم ذو الفضل الكثير عن تاج الدين بن الأثير ، قال يسار أخبرنى بهذه الأخبار.

---

(١) حديث ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٢٤٦٨٢) بنحوه ، وعزاه للديلمى عن أنس بن مالك ﷺ .

[٤٣] **قال** : قال ابن الأثير[١] ؛ وهو بالرواية خبير ، مجزر أيدى المعانى عن الأمير حسام الدين البركة خانى قال : كنت فى عصر الشباب أصحب من صالحى الشباب الملك المظفر قطز[٢] ، الغضنفر ، وكان خشداشى[٣] وبرؤيته انتعاشي، فكنا ونحن صبيان كأننا ظبيان ، غير أنا كنا فى قلة ، فكنت أفلى قمله وأسرح رأسه وأذهب يأسه ، وتقدمت إليه بالشرط عليه أن يعطينى لكل قملة فلسا ، أو أصفعه صفعة ملسا[٤] ، ففى بعض الأوقات أخذت عنه قملا كثيرا وصفعته صفعات ، وقلت فى غضون ذلك ونحن فى حال حالك : أتمنى على الله عز وعلا أن يعطينى أمرَة خمسين رجلا .

فقال لى : طيب خاطرك وسر سرائك ، فإنى أبلغك سؤالك ، وأعطيك مسؤلك وأجعلك أمير خمسين فارسا فأبشر ولا تكن عابسا ، فصفعته صفعة وقلت : ويلك أنت تعطينى إمرة ورفعة . قال : نعم وأغمرك بالنعم فصفعته أخرى وازددتُ نكرا .

فقال لى علمه ونخس المسلة : يا قليل اليقين أتريد شيئاً غير إمرة خمسين ، أنا والله أعطيك وأعليك على ذويك ، فقلت : ومن أين لك تعطينى وترضينى .

فقال أملك هذه الديار ، وأكسر التتار وأحل الكفرة والعلوج[٥] دار البوار .

---

(١) ابن الأثير : هو عز الدين على مؤرخ كبير من آثاره الكامل من التاريخ .

(٢) الملك المظفر قطز قاصم التتار وصاحب موقعة عين جالوت .

(٣) رتبة عسكرية .

(٤) خفيفا .

(٥) العلوج ، مفردها العلج : الرجل الضخم القوى من كفار العجم ، وبعضهم يطلقه على الكافر عموماً .

فقلت له : يا مفتون أنت مجنون أبقملك وقِلّك وفقرك وذُلّك تملك الديار المصرية ، وتصير سلطان البرية .

قال نعم ولا تعمل زعم ، فإنى رأيت فى المنام النبى عليه الصلاة والسلام وقال لى : أنت تملك الديار المصرية ، وتكسر التتر ، ولا شك فيما يخبر به النبى ﷺ من خبر .

وقال : فأمسكت عنه ، لأنى كنت أعرف الصدق منه ، ثم تنقلت به الأحوال وتنقل إلى أن بلغ الكمال ، وتملك هذه الديار ثم كسر على عين جالوت التتار[1] ، وأعطانى ما وعدنى به وأرضانى .

وإنما أوردت هذا المثال ؛ لتعلم أن سلطنتك غير محال ، وأنا أرجو الله تعالى أن ييسر لى القيام بجميع ما قلته يا إمام ، وأنا أجلسك على السرير، وأقيم فى خدمتك الكبير والصغير ، وأرفع راية مراسيمك ، وأنفذ أوامرها فى ممالكك وأقاليمك ، وأجعل جنود الوحش تحت رايتك ، وأقاليم القفار كلها تحت ولايتك ، ولكن بشرط أن تتبع ما أراه ولا تخرج عن طوره ولا تتعداه ، وتعمل بكل ما أشير إليه ومهما أرشدتك إليه تُعوّل عليه .

فقال : أنا طوع يديك وجميع أمورى منك وإليك ، فقل فإنى سامع ولأمرك طائع ، فانهض وعانى هذه الأمانى ، عسى يصير هذا الباطل حقا وينقلب هذا الكذب صدقا وقل ما تقضيه لأتبعه وأرتضيه .

قال : ترجع عما أنت عليه من من الأخلاق السبعية ، والأوصاف الكلبية من الحرص والشره والتكلب والتره[2] والنفس المتمرة والطبيعة

---

(١) عين جالوت : هى موقعة انتصار المسلمين بقيادة السلطان قطز على جيوش التتار ، وهو مكان فى فلسطين قرب الناصرة . معجم البلدان (٨٧٠٦) .

(٢) الباطل .

المذمرة[1] ، وتصوم عن الدماء واللحوم وعن تمزيق الحيوانات وتفريق الجماعات ، وتحمل النفس على الأخلاق الجميلة والتلبُّس بالأوصاف الفضيلة من العفة والكرم والعفو عمن ظلم ، والقناعة بالنبات عن لحوم الحيوانات ، ومعاملة الكبير والصغير بالفضل الكثير والبذل الغزير ، وتلافى الخطير والحقير ليسهل العسير وينقاد لك المأمور منهم والأمير ، وهذا أمر عليك يسير ، وهذا لأنك طالما جرحت جوائحهم[2] وكسرت جوارحهم ، واصطدت سارحهم وأبدت بارحهم ، فهم منك متخوفون وإلى الإيذاء والضر منك متشوفون .

وإذا رأوا شيئا خلاف العادة ، وعلموا أن ولايتك فيها الحسنى وزيادة ، وأصابوا الخير من مواقع الضير ورأوا ماسرَّ من مواضع الشر والضر ، تشرب محبتك منهم الكبير والصغير، وأنهاك أن يراك من الوحوش العير والنفير فيتخذك الغريب حبيبا ، ويصير البعيد منك قريبا فتصيد بالمحبة أرواحهم كما كنت أو لا تبيد أشباحهم[3] ، وإذا ضرب صيتك فى الأرض ونثر دره بالطول والعرض ، وتسامعت بك الوفود وتحققوا أنك عدلت عن خلقك المعهود ، أقبلت إليك منهم الجنود وزان جيد جنودهم من مجوهرات محبتك عقود ، وانعقدت بينكم بالمحبة والولاء عقود العهود فتوفرت إذ ذاك جنودك ، وعلت على رؤس الأقران راياتك وبنودك[4] ، وجعلوا دارك مأواهم وحماك مصيفهم ومشتاهم ، مع إن هيبتك فى قلوبهم مركوزة وأسنة مخافتك فى أحشائهم من قديم الزمان مغروزة ، وأعلى من فيهم يهابك ويخشاك ويتوقى مكانك ويتحاشاك .

---

(١) الجريئة .

(٢) أى بلوتهم وأهلكتهم . والجائحة البلية والتهلكة .

(٣) الأشباح ، مفردها شبح : الجسد .

(٤) شروطك .

قال يسار : اعلم يا خير سار إن حبال الآمال ومطامع الخيال ، مالم تتعلق بمأمول ، ولم ترتبط بأطراف سول ؛ فالنفس ساكنة والروح مطمئنة هادئة والقلب فرح والخاطر منشرح ، إذ الطمع ذل وشين ، واليأس إحدى الراحتين ، ومتى تعلقت بذيل المطامع مخاليب الآمال ، وبلغت إلى حصول مأمول الخيال وقامت النفس فى تحصيله وتحركت الجوارح لنيل مأموله ، وانبعثت الهمة إلى إدراكه ، وتعلق القلب بسير أفلاكه ، توزعت الأفكار وتفرقت وتمزعت وركب لذلك كل صعب وذلول ، وتقاذفت النفس فى كل مخوف ومهول ، وتقلدت بحمائل قول القائل :

إذَا لَمْ يَكُنْ عَونٌ مِنَ اللَّه لِلْفَتَى فَأَوَّلُ ما يَجْنِى عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

ثم إذا لم يحصل المأمول ولم تبلغ والعياذ بالله النفس السول ، مع بذل الجهد والمبالغة فى السعى والكد ومقاساة ومعاناة النصب ؛ ترادف النكد وتضاعف السهد ، وصارت النفس لهذا البدد وكان فى جيد حياتها من فوات المقصود حبل من مسد ، فلا تزال بين تشويش ضمائر وتقسيم خاطر وفكر غائب وهم حاضر ، وهذا الأمر الذى عزمت عليه وهممت بالترقى إلى الوصول إليه ، إلى عدم الحصول أقرب منه إلى الوصول ، وأنا أخاف وذا غير خاف أن يغرنا الطمع فى هذه الحركة فينتزع من فراغ أوقاتنا البركة ، ولا نحصل إلا على مثل ما حصل لمالك الحزين من السمكة : قال الزنيم : نبئنى أيها العليم بذلك المثل القويم .

[٤٤] قال : بلغنى إنه فى مكان مكين مأوى لمالك الحزين ، وفى ذلك المكان غياض وغدرات تضاهى رياض الجنات :

حَكَى بأَنَّها قَد الحَبِيْب تمايلاً فجن وفى هذا الجنون تفننا
فَدَارَ عَلَيْهِ النَهْر وَهُوَ مسلسل فَقَيده إذ قَد جُنى وتَجَنَّا

وفى مياهه من السماك ما يفوق سابحات السماك ، فكان ذلك الطير فى دعة وخير ، يزجى الأوقات بطيب الأقوات ، وكلما تحرك بحركة كأن فيها بركة ، حتى لو غاص فى تلك البحار والغدران لم يخرج إلا وفى منقاره سمكة .

فاتفق فى بعض الآناء تعسر عليه أسباب الغذاء ، وارتج لفوت قوته أبواب العشاء ، فكان يطير بين عالم الملك والملكوت يطلب ما يسد الرمق من القوت فلم يفتح عليه بشىء من أعلى السماك إلى أسفل الحوت ، وامتد هذا الحال عدة أيام وليال ، فخاض يوما فى الرقراق[1] يطلب شيئاً من الأرزاق، فصادف سمكة صغيرة قد عارضت مصيره فاختطفها ومن بين رجليه التقفها، ثم بعد اقتلاعها قصد إلى ابتلاعها ، فتداركت زاهق نفسها قبل استقرارها فى رمسها ، فنادت بعد أن كادت أن تكون بادت ما البرغوث ودمه ، والعصفور ودسمه . اسمع يا جار الرضا ومن عمرنا فى صونه انقضى : لا تعجل فى ابتلاعى ولا تسرع فى ضياعى ؛ ففى بقائى فوائد وعوائد عليك عوائد ؛ وهو أن أبى قد ملك هذا السمك فالكل عبيده ورعيته وواجب عليهم طاعته ومشيئته، ثم إنى واحد أبوى وأريد منك الإبقاء على ، فإن أبى نذر النذور حتى حصل له بوجودى السرور ، فما فى ابتلاعى كبير فائدة ولا أسد لك رمقا ولا أشغل لك معدة فتصير مع أبى الفضيل كما قيل : فافقرنى فيمن أحب ولا أستغنى ، فالأولى أن أقر عينك وأعرف ما بين أبى وبينك ، فأكون سبباً لعقود المصادقة وفاتحاً لإغلاق المحبة والمرافقة ، ويتحمل لك الجميلة والمنة التامة والفضيلة .

وأما أنا فأعهدك إن أعتقتنى ومننت وأطلقتنى ؛ أن أتكفل لك كل يوم بعشر سمكات بياض سمان ودكات[2] ، تأتيك مرفوعة غير ممنوعة ولا مقطوعة ، يرسلها إليك أبى مكافأة لما فعلت.بى من غير نصب منك ولا وصب[3] ولا كد تتحمله ولا تعب .

---

(١) الماء الرقيق فى البحر والوادى .

(٢) مستسلمات ذليلات .

(٣) تعب .

فلما سمع البلشون[1] هذا المجون ، أغراه الطمع فما ابتلع فسها ولها ، ثم قال لها : أعيدنى هذه الرمزة ، فبمجرد ما فتح فاه بالهمزة أنملصت السمكة منه بجمزة[2] ، وغاصت فى الماء وتخلصت من بين فكى البلاء ، ولم يُحصِّل ذلك الطَّمَّاع إلا قطع الأطماع .

وإنما أوردت يا ذا الدراية هذه الحكاية ؛ لتتأمل عقبى هذا الأمر قبل الشروع فيه ، وتتدبر منتهى أواخره فى مباديه فقد قيل : أول الفكر آخر العمل .

قال المشرقى : اعلم يا مرتقى إن مبنى الأمور فى مجاريها ، وقواعد ما أسس عليه مبانيها تقدير خالقها وتدبير باريها ، وما حكمه وقضاه وأحكمه وأمضاه ، لكنه كتمه وأخفاه فلا تدركه العيون والأبصار بل ولا البصائر والأفكار ، فإنه علم غيب وجهلنا به ليس بعيب ، لأنه تنزه أحدا صمدا قال تعالى ﴿ **عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدَاً** ﴾ [الجن:٢٦] . كما قيل :

على المرء أن يسعى ويبذل جهده ... وليس عليه أن يساعده الدهر
فإن نال بالسعى المنى تم أمره ... وإن غلب المقدور كان له عذر

وإن الله العلى الأعظم قد وضع أساس بنيان العالم على الأسباب ، وفتح لتعاطى الأسباب الأبواب فقال ذو الجلال ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت:٦٩] . وقال ﴿**فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِّزْقِهِ**﴾ [الملك:١٥] . وقال القائل:

إذا ما كنت فى أمر مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم
يرى الجبناء أن العجز حزم ... وتلك خديعة الطبع اللئيم
فطعم الموت فى شىء حقير ... كطعم الموت فى شىء عظيم

---

(١) البلشون : طائر طويل العنق والجناحين والساقين يُعرف بمالك الحزين وهو يقعد بقرب المياه فإذا نشفت ظهر كئيباً .
(٢) أى بحركة سريعة إلى الوراء .

وقال عليه الصلاة والسلام : ((علو الهمة من الإيمان))[1] . والمرء يسعى فى تحصيل مرامه ، ولا يترك شيئاً من أسباب قيامه ، فإن ساعده القدر بقدره انقاد إليه مرامه بشعره ، وكان مصادمه مساعده ومقاومه معاضده ، كما قيل :

وإذا أراد الله نصرة عبده كانت له أعداؤه أنصارا

فيساعده إذ ذاك الكون والمكان ويمضى سهم أوامره رامى القضاء من قوس الزمان ، فيقيض له المساعد ، ويتعبد له المقارب والمباعد ، وحسبك يا ذا الصولة ما اتفق من السعد لعماد الدولة[2] فسأله يسار عن سرد هذه الأخبار.

[٤٥] **قال** : كان رجل صياد له ثلاثة أولاد كأنهم حَمَك[3] وقوتهم السمك ، تقلبت بهم الأحوال حتى صاروا برياستهم على الدنيا أحمال وانتهوا فى الرياسة ، وساسوا الخلق أحسن سياسة ، وانتشر أمرهم وطاب فى الدهر ذكرهم ، ومما ملكوه العراقان[4] ، والأهواز[5] ، وفارس وسرتها شيراز[6] .

---

(١) حديث : ((علو الهمة من الإيمان)) .لم نعثر عليه فيما بين أيدينا من المصادر ، ولكن فى معناه ذكر العجلونى فى كشف الخفا (٣٣٥/٢) ولفظه : ((همة الرجال تُقلع الجبال)) . وقال الشيخ : لم أقف عليه .

(٢) أبو الحسن على بن بويه ، عماد الدولة من مؤسس دولة بنى بويه بفارس ، استولى على شيراز سنة ٩٣٤هـ وحكم فارس حتى وفاته عام ٩٤٩هـ .البداية والنهاية (٢٣٥/١١) .

(٣) الحمك : الصغير من كل شيء .

(٤) العراقان : اسم أطلق سابقا على الكوفة والبصرة ، وأيضاً على العراق الحالى (العراق العربى) والجبال (العراق العجمى) .معجم البلدان (٨٢٦٨) .

(٥) الأهواز : مدينة فى جنوب إيران وهى عاصمة خوزستان . معجم البلدان (١١٦٣).

(٦) شيراز : مدينة فى جنوب إيران بجبال زاجروس . معجم البلدان (٧٣٨٦) .

أكبرهم أبو الحسن علي بن بويه ، الملقب بعماد الدولة . وكان في السلطنة ذا جولة وصولة . ولما انتهت أيام خموله واتصل بالسعد أسباب وصوله ، حل ركابه بشيراز وصعد إلى حقيقة الملك من المجاز ، ووفدت عليه الوفود وأحاطت به جموع الجنود ، وطالبه أهل المراتب بالرواتب ، والروامك بالجوامك[1] ، والرفاق بالإنفاق ، والأجناد بالأرفاد ، وأرباب الولايات بالخلع والجرايات ، وأصحاب الإقامات بالنفقات والإنعامات ، ولم يكن في خزائنه من ظاهر المال وباطنه ، ولا في ذخائره من ظاهر الرفد وضمائر ما يسد رمقهم ويرد شَرَقِهم ، فتراكمت همومه وتصادمت غمومه ، وتوالت أفكاره وتجاذب به من بحر الحيرة در دوره وتياره ؛ لأن أمره كان في مباديه وليل سعده في هواديه ، وقد قصرت عن طول الطول أياديه، وأشرف أمره على الاختلال ، وملكه على الاضمحلال ، ووقع في يوم لا بيع فيه ولا خلال فدخل إلى مكان خال وهو مشغول البال فاستلقى فيه على ظهره وغرق في بحار فكره .

فبينما هو يلاحظ السقوف ، وأفكاره بين تردد ووقوف ، وإذا بحية عظيمة بجثة جسيمة من السقف خرجت ودرجت وفي مكان آخر ولجت ، فوثب واقفاً ورقب خائفاً لئلا تسقط عليه ويصل أذاها إليه ، ودعا الفراشين وجماعة فتاشين بمعاول النباشين ، وأمرهم بنصب السلم والفحص عن الأرقم[2] ، وتتبع آثارها وإطفاء شرارها فصعدوا الحيطان وحفروا ذلك المكان ، وخرقوا سقفه ، فانفتحت لهم غرفة كانت مخبأ لمن تقدمه وضع فيها دينار ودرهمه ، وفيها عدة صناديق محكمات التوفيق والمعاليق ، فأطلعوه

---

(١) الروامق : القائمين على خدمة الدولة . والجوامق : مرتب خدام الدولة من العسكرية والمماليك .

(٢) الثعبان .

على تلك الخبية[1] والتهوا عن طلب الحية الجبية ، فأمرهم فنقلوها إليه ووضعوها بين يديه ، فإذا فيها من الذهب النضار خمسمائة ألف دينار ، فعرف أن ذلك عناية ربانية ومواهب صمدانية رحمانية ، فصرف المال فى إصلاح حاله ، وبذره فى مزارع قلوب خيله ورجاله فثبت أوتاده واستقامت أجناده وقويت سواعده وأعضاده ، وكان أمره قد أشرف على الاختلال وعقد نظامه على الانفراد والانحلال .

وكان من تمام هذه السعادة وتعقيب هذه الحسنى بالزيادة أن الملك المذكور بعد هذه الأمور وحصول هذا السرور ، وانتظام مصالح الجمهور ، أراد تفصيل قماش وخياطة خلع ورياش ، فطلب خياطا ثقة ليقلده هذه المنطقة[2] ، فأُرشد إلى خياط ماهر شكله زاهر وفضله ظاهر وحذقه فى صناعته باهر ، إلا أنه أطروش[3] حقل سمعه بدبى الوقر مدبوش[4] . فما يصل ملك الكلام إلى سرير صماخه[5] إلا بزمر وطبل وجاروش[6] ، فدعاه فأجلسه بين يديه وطلب الثياب ليعرضها عليه فتصور الخياط أنه سعى به إليه بسبب وديعة كانت لصاحب البلد لديه ، وإنما طلبه ليطالبه ، فإما أن يؤدبه أو يعاقبه ، فتقدم باليمين مثل المصارعين ، وأقسم بالله خالق المخلوق ورازق المرزوق أنها اثنا عشر صندوق لم يشعر بها مخلوق وإنه لا يدرى ما فيها ، وإنها مختومة بختم معطيها ، فتعجب عماد الدولة من كلامه وسجد لله شكراً على إنعامه .

---

(١) الستر والمكان المخبأ .

(٢) الحزام يُشد على الوسط .

(٣) أى ذا صمم .

(٤) الدبش : أثاث البيت . والمعنى أى فاقد السمع .

(٥) الأذن .

(٦) الحك محدثاً صوتاً .

ثم وجه معه من أتى بها ودخل إلى بيوت ما فيها من أبوابها ، فكان ما فيها من الأموال ونفائس القماش العال جمل متكاثرة ، وأصناف متوافرة، واستولى على ذلك كله وثبت بواسطة المال فى ركاب الملك واطئ نعله .

وإنما أوردت هذا التنظير يا ذا الرأى والتدبير ؛ لتعلم أن مسبب الأسباب وميسر الأمور الصعاب ، إذا دبَّر مصالح عبده وشمله بإحسانه ورفده ؛ هون عليه كل عسير وصغر كل كبير ، وأنت بكل هذا بصير .

قال يسار : صدقت وصوابا نطقت ، ولكننى نظرت إلى الدنيا ورُزْتُ[1] أحوالها السفلى والعليا ، ورأيت كلما زاد الشخص حرصاً وطمعاً ازداد لنفسه عبودية وتبعا وللدنيا وللآخرة رشقا[2] ، فصارت قيوده أثقل وحسابه أشد وأطول ، وهمومه أتم وغمومه أعم ، وإن الواثق بالدنيا والراكن إلى ما فيها من أشياء كالجاعل له من السحاب حصناً ومن الحباب كنا[3] ، وأى وقاية تحصل من السحاب وأى إيواء يصدر من الحباب ، ومن تأمل الدنيا بعين التبصر وتفكر فى تقلباتها بمصيب العقل والتدبر ، عد جمعها شتاتا ، ووصلها انبتاتا ومجيئها ذهابا ، وشرابها سرابا ، وإقبالها إدبارا ونسميها إعصاراً ، وعطاءها أخذا ، وعهدها نبذا وصلتها فلذا ووهبها نهبا ، وإيجابها سلبا ، وحربها سلما ، ووجودها عدما ، وكثرتها قلا ، وعزها ذلا ، وضحكها نياحه، وطلاقها راحه ، فلم يكن عنده أحسن من فراقها ولا أرضى من طلاقها ، والقناعة منها بالكفاف والرضا منها بالعفاف ، كما سلك الفلاح صاحب الماشية واستراح . فقال الزنيم : أخبرنى كيف كان ذاك يا حكيم .

[٤٦] **فقال** : إن مخدومى الذى كنت عنده أحفظ ماشيته وعبده كان ذا ثروة عظيمة وأموال كثيفة جسيمة ، وكانت ماشيته لا تزيد فى القياس عن

---

(١) جربت .

(٢) أى رماها وراء ظهره .

(٣) أى كالجاعل من حبات الرمل حصناً له .

ألف راس ، وإن حصل من النتاج المعهود ما يزيد على هذا القدر المعدود؛ تصدق به أو باعه أو وهبه لبعض الجماعة ، ولو أراد لجعلها ألوفا مؤلفة وأضعافا مضاعفة ، وكان فى الجيران والأصحاب والإخوان من هو أقل منه مالا وأقصر باعا وأضيق مجالا ، له الألوف من المواشى ، وكذلك من الخدام والحواشى ، وهم فى كل وقت فى ازدياد وتضاعف الأعداد من الأصول والأولاد ، ومخدومى لا يقصد الزيادة وإن زاد شيء أباده .

فقال له الراعى وكان عليها أشفق ساعى : يا مخدوم مَالَكَ لا تريد أن تزيد مواشيك وحواشيك ، وتكثر بالرفق والرفد فواشيك[1] ، وبالورود الإصدار غواشيك ، فإن المواشى تزداد فوائدها وتتوفر عوائدها ، باعتبار زيادة أصولها وإدرار منافعها ومحصولها ، وجيراننا كانوا أقل عدداً من هذا المقدار فصاروا بالتوفير أكثر عددا فى الأغنام والأبقار ، فزادوا على مواشينا بعد أن كان أوساطهم كحواشينا ، ولا أعرف لهذا موجبا ولا أدرى له سببا غير الإهمال وقصد تضييع المال .

فقال مخدومى : هذا محيط معلومى ، ولكن أيها الولد اعلم أن أنواع العدد آحاد وعشرات وألوف ومئات ، فالألوف غاية الأعداد إذا اعتبرنا التعداد ، والشيء إذا جاوز غايته وتعدى نهايته أخذ فى النقص ، وإذا بلغ مداه تراجع بالنكص ، وقد قيل : الشيء إذا جاوز حده شاكل ضده ، ومن لم يقنع بالقليل لم يرض بالجزيل ، ولقد أحسن المقال وصدق فيما قال مَنْ قال :

وما الدهر إلا سلم فبقدر ما يكون صعود المرء فيه هبوط
وهيهات ما فيه يزول وإنما شروط الذى يرقى إليه سقوطه
فمن كان أعلى كان أوفى تهشما وفاء بما قامت عليه شروطه

وكثيراً ما رأيت وسمعت ووعيت عن أصحاب الألوف القاصدين

(١) دواعى الفخر .

لازدياد المألوف نزلت ألوفهم إلى الواحد من الآحاد فاستولى عليهم لذلك الهموم والأنكاد ، فتكدرت خواطرهم واشتعلت ضمائرهم ، وأما أنا فلم أعلم أن ألفى نقص ولا جارى حَلَبَة مداه نكص ، فإذا عدا غايته ألزمته نهايته وكبحت جامح طرفه ، وكففت طامح طرفة ؛ طلباً للراحة ورغبة فى الاستراحة :

فكم دقت ورقت واسترقت فضول العيش أعناق الرجال

وإنما أوردت هذا التمثيل ؛ لتعلم يا ذا التفضيل إنى ما دمت له خادما وفى وصف الخدمة قائماً ، ولم أتعد طورى وهو مقام الخادمية إلى ما ليس لى وهو مقام المخدومية ، فأنا مستريح ولغيرى مريح ونفسى مطمئنة، وجوارحى عن طيش السعى مرجحنة ، وأصحابى أحبابى ، وأحبابى أصحابى، والخواطر صافية ، والمحبة وافية ، والصداقة باقية ، ومياه المودة فى رياض الأرواح صافية وفى عروق الأشباح واقفة جارية ، فإذا رمت مع وجود هذه الحسنى الزيادة وقصدت التعدى إلى ما ليس له به عادة ، فأنا بين أمرين متقلب على جمرتين ، إما عدم الحصول والانقطاع عن الوصول، فتتضاعف المُكِدَّات وتترادف المقسمات ، وبحسبها تصل الهموم وتحصل الغموم كما مر سالفاً وذكر آنفاً ، وإما الظفر بالمراد على حساب ما يراد فبقدر ذلك يقع الصداع ، ويقوم التحاسد والنزاع ، وأول ذلك معاداة الأصحاب ومعاناة الأحباب ومقاساة الأتراب ، وحصول الضغائن وبروز المكامن؛ بواسطة الترفع عليهم وصدور المراسيم والتقدم بامتثالهم إليهم ، فالأولى بحالى التفكر فى مآلى واللائق بشورى أن لا أتعدى طورى ، ولا أتورط فى هذا البحر العميق والبئر الغميق ، ولا أخرج عن سواء الطريق فتهوى بى طير الهوان فى مكان سحيق :

وإنى يسار خائف أن يردنى زمانى بما لاقى يسار الكواعب

قال المشرقى أبو زنمة : ما أحسن هذه الكلمة وأيمن هذا النظر، وأرصن هذه الفكرة ، وأدق معانى هذه المبانى ؛ ولكن إذا رفعك الله من يضعك ، وإذا أعطاك من يمنعك وقد قال ذو الجلال ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر:٢] وقال صلى الله عليه وسلم ((اللهم لا مانع لما أعطيت))[١] .

وكل الناس تطلب المعالى ونفس الحر تأبى أن تضاما

فلما بلغ بهما الكلام إلى هذا المقام قال يسار : اعلم يا فحل الفحول، وإمام المعقول والمنقول ؛ أنى ما بالغت فى الامتناع إلا لأقف على ما فيك من طباع، أسبر ثبوت قدمك وثباتك وراء كلمك ، فلقد وجدتك فى هذا الأمر الخطير فوق ما فى الضمير ، وفى مواطن الاختيار أثبت جنانا من ابن الليث الصفار ، فانهض لقصدك وحركته على خيرة الله تعالى وبركته ، فإنى وضعت عنان جموح هذا المرام فى يد تدبيرك ، وجعلت واسطة هذا العقد جوهرة تفكيرك ، وسلك نظامه ونظام قلادته جودة تصويرك ، فإنك أهل لذلك وبرأيك تقتدى المسالك ، فابتهج أبو زنمة بهذا المقال ووثب فى مقام الخدمة، وقال : حيث انشرح صدرك لكلامى ، فسترى فى وجهك مجالس قيامى ، وأنا أعلم أن معبودك سيبلغك مرامك ومقصودك ، ولكن يجب التيقظ ، وقبل الشروع التحفظ . أما التيقظ فلأ ور يجعلها الملك مقتدى ولا يغفل عنها أبدا ، كما فعل الملك الظاهر الموفق أبو سعيد محمد جقمق[٢] .

[٤٧] **قال** : حين أضطربت الأوامر واختلفت العساكر واصطدمت الأمور ، وخرج عليه من عساكره الجمهور ، وقل المعين ، وذلك فى سنة اثنتين وأربعين ، فعصى تكرى وتترس فى حلب ، وقام بالراكمة الجلب ،

---

(١) الحديث أخرجه البخارى : كتاب الأذان ، باب الذكر بعد الصلاة (٨٤٤) .

(٢) المالك الظاهر جقمق ، سلطان المماليك من سنة ١٤٣٨ إلى سنة ١٤٥٣م ، كان وصياً على يوسف ابن برساى ، فخلعه بعد توليته بثلاثة أشهر ، وكان متشدداً فى الدين ، ونعمت البلاد فى أيامه بالهدوء .

وإينال الحلبى بالشام وكَاتَبَه الطغام والعظام ، وهرب بالقاهرة العزيز وأزت الشيطاطين فاشتد الأزيز ، وتخبط بالصعيد العريان ، وفشا فى عساكر الإسلام، الطريان[1] .

فسفه الحليم ، وحار الحكيم ، وضل كل ذى رأى قويم ، فثبت الملك الظاهر وتعرف إلى الله تعالى فأزال استيحاشه ، وأصفى سرائره ، ولم تزل سيرته ظاهرة فكان الله عونه وناصره ، فأطفأ بأدنى لطفه شواظ تلك النائرة .

وقد بسط ذلك فى سيرته الظاهرة فتبدل الجحيم بالنعيم ، ورفع الله تعالى عن الإسلام والمسلمين العذاب الأليم ؛ كل ذلك بثبات القدم وعلو الهمم، ولم تحصل هذه الفعلة الذكية الرائحة ، إلا بالطوية الطيبة والنية الصالحة . وأما التحفظ فمن مواد شرور ملتبس بها الجمهور ؛ منها الحقد والملال والكذب فى المقال والحسد والاحتيال . فإن الحقود وقود ، والحسود لا يسود ، والكذوب يذوب ، والملول لا يطول ، والمحتال مغتال ، وباقى النصائح الذكية الروائح تأتيك بالسعد فيما بعد .

وأنا الآن أقدم للبيان وأذكر الأهم وما فائدته أعم ، قبل الشروع أمام المقصود ، وهو تأكيد مواثيق العهود ، فإنه إذا حفتك الجنود ، وأحاط بك أرباب الرايات والبنود ، وأنت جالس على السرير وفى خدمتك المأمور والأمير والكبير والصغير ؛ يعسر علىَّ استيفاء الخطاب ، واستيعاب الجواب، ولا يليق بعظمتك ومقام حرمتك إطالة الكلام ولو اقتضاه المقام ؛ خصوصاً بحضور الخاص والعام ولو كان المتكلم أعز الخدام وأقرب الألزام[2] ، فلا أقدر أن أتجرأ عليك وأنهى جميع ما أريده إليك ؛ لأن قصد الخادم إقامة حرمة مخدومه ، والمبالغة فى حفظ ناموسة وتعظيمه ، وكثرة الكلام تمنعه عن هذا القصد وتدفعه ، وأما فى هذا الوقت فإن كثير كلامى لا يورث شيئاً من المقت فلا حرج على كلامى كيفما خرج .

---

(١) الاضطراب .

(٢) أقرب الأقرباء .

قال يسار : بارك الله فيك وأبقاك لذويك ، فما أدق نظرك وأحسن فى عواقب الأمور فكرك ، وأصوب غوصك على جواهر الانتقاد ، وأغرب بوصك[١] إلى زواهر الاعتقاد ، فقل ما بدالك مما يزين حالى وحالك ، فإن حرمتى حرمتك وحشمتى حشمتك ، فإن عظمتنى فقد عظمت نفسك ، وإن وفرت مالى فقد زدت كدسك[٢] . والخادم إذا لم يقصد رفعة مخدومه ويعد ذلك من أكبر همومه ، ويسعى فيه ساعة فساعة وفى كل مكان وعند كل جماعة ، وإلا فيدل ذلك على خساسة مقداره ، وقصور نظره ولؤم نَجَارِه[٣] ، وركاكة همته واستبذال حرمته .

فقال أبو زنمة : أول شروطى يا ذا العظمة : أن لا تقترب المؤذين ولا تلتفت إلى الأسرار المغتابين ، ولا تضيع الأوقات فى الإمغاء إلى القينات ، ولا تسمع كلام واشٍ وتعد كلامه أقل من لاش .

ثانيها : أن لا تعجل فى فصل الحكومات ؛ بل تتعاطاه بالتفتيش والالتفات إلى أن تتجلى صورتها وتتعين حقيقتها ، فإذا وضحت لديك ، وتخلت مخدرة حقيقتها عليك ، أجهد فيها بالصدق وأعمل بما يقتضيه الحق .

ثالثها : أن لا تعوّد لسانك الفحش والبذاءة ، فإن فى ذلك على الملك أسوأ إساءة فإن الكلام يؤثر فى القلوب ، وينفر من قبيحه الطالب والمطلوب وقد قيل :

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان[٤]

[٤٨] **وقد قيل** : إن عيسى عليه السلام مر بجماعة فى بعض الأيام فصادفوا كلباً أجرب فقال له : سلمك الله اذهب ، فقال كل من أصحابه ، مما كان مُعَبِّى فى جرابه من الاستنقاص وطلب البعد عنه والمناص ، وما سلموا إلى عيسى حاله ؛ بل سألوه عن كلامه له وما دعا له .

---

(١) السبق والتقدم .
(٢) أى زدت ، وتكدس حبك عندى .
(٣) أى القصد .
(٤) السنان : نصل الرمح .

فقال : إنى عودت لسانى ببيان ما فى جنانى ، وهو المقاصد الحسنة وترك الألفاظ والعبارات الخشنة .

[٤٩] وقيل : إنه مر فى بعض الأوقات ومعه جماعات ، بكلب من الأموات ، ملقى على مزبلة فى جملة القاذورات ، فوضع كل منهم يده على خطمه[١] ، وتكلم فى رائحته عند شمه . فقال عيسى عليه السلام : ما أحسن بياض أسنانه ، فقيل له عما سمع من بيانه .

فقال : عودت لسانى بلفظ الخير وإن لا يتكلم بما فيه ضير.

وكما يجب على الملك كف اللسان الفصيح عن الكلام البذىء القبيح، كذلك يجب عليه أن لايصغى إليه ويتأمل قول الشاعر :

وسمعك صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق به
فإنك عند سماع القبيح شريك لقائله فانتبه

ووجد فى كتاب (آداب الصحبة) لأبى عبد الرحمن السلمى[٢] بيت ثالث:

وكم أزعج الحرص من طالب يوافى المنية عن مطلبه

وهذا الأمر يا مخدوم لكل أحد معلوم على العموم . وأما أكابر السلاطين والملوك الأساطين فهم أعلى مقاما أن يكون الفحش لهم كلاما ، وأن يجرى فى مجالسهم ، أو يسمع من محادثهم ومجالسهم ، وكل ملك اعتاد مجلسه فاحش الكلام اختل نظامه ومقته الخاص والعام ، ونفرت عنه قلوب الرعية ، وبحسب رغبة الرعية تكون الممالك راضية مرضية ، وإذا نفرت

(١) أنفه .

(٢) عبد الرحمن السُّلَمى : محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدى ، السلمى الأم ، الإمام الحافظ المحدث ، شيخ خراسان وكبير الصوفية ، ابو عبد الرحمن النيسابورى الصوفى صاحب التصانيف مات سنة (٤١٢هـ) بنيسابور. سير أعلام النبلاء(٣٧٩٩).

قلوب الرعية كرهوه وتوقعوا غيره ليقوموا معه وينصروه ، وإذا لم يوجد عقدوا الحقود واستمروا أذلاء كاليهود ، والبغضة كامنة والخسائف[1] باطنة، فتقدم العداوة وتتقدم وتتأكد وتتأزم ، وإذا قدمت العداوة ذهبت من الصداقة الحلاوة ، فلابد يوماً من الأيام أن تبرز رأسها من جيب الانتقام ، وإذا وجدوا فرصة وثبوا عليه وقصدوا قصه كما جرى للفريرة مع الهريرة . قال يسار : بَيِّن لى هذه الاخبار .

[٥٠] فقال : ذكر شخص معتبر من رواة الخبر ؛ أن فى القديم كان رجل عديم وعنده قط رباه وأحسن مرباه ، فكان عنده كالولد الأعز وأكرم من ابن الفرات[2] عند ابن المعتز[3] ، وكان القط قد عرف منه الشفقه ، وألف منه المودة والمقة ، فكان لا يبرح عن مبيته ولا يسعى لطلب قوته ، فحصل له هزال وتغير ماله من أمر وحال لا عند صاحبه ما يغذيه ، ولا هو ذو قوة عن الاصطياد تغنيه ، إلى أن عجز عن الصيد ، فصار يسخر به من أراذل الفيران كل عمرو وزيد وصار كما قيل :

خَلَتِ الرقاعُ من الرُّخَا ... خ وفَرْزَنَتْ فيها البيادق[4]
وتَسَابقتْ عُرْجُ الحمير ... فقلت مِنْ عَدم السَّوابق
وسَطا الغرابُ على العقا ... ب وصاد فرخ اليوم باشِقْ[5]
سَكَتَتْ بَلابِلَةُ الزما ... ن وأصبح الخفاش ناطق

---

(١) الكراهية والبغض .

(٢) ابن الفرات : وزير عباسى ، الوزير الكبير ، أبو الحسن ، على بن أبى جعفر بن الفرات ، ولما جرت فتنة ابن المعتز ، وقُتل العباس الوزير ، وزر ابن الفرات سنة سنة ٩٦هـ وتمكن ، فأحسن وعدل ، وكان سمحاً مفضالاً محتشماً ، ثم عزل ووزر عدة مرات مات سنة ٢٩١هـ . سير أعلام النبلاء (٢٨٠٢) .

(٣) ابن المعتز : خليفة عباسى .

(٤) الرُّخ : قطعة من قطع الشطرنج وهو الطابية ، والبيدق : عسكرى الشطرنج ، والمعنى : أى خلت الأرض من أصحاب الهمة والسمو وامتلأت بالأراذل .

(٥) الباشق : من أصغر الطيور الجارحة .

وأيضاً :

وإذا خلا الميدانُ من أسدٍ رقص ابنُ عرس ونَوْمَسَ النِّمْسُ

وكان فى ذلك المكان ، مـأوى لرئيس الجـرذان ، وفـى جـواره مخـزن للسمان فاجترأ الجرذان لضعف أبى غزوان ، وتمكن من نقل ما يحتاج إليـه ، وصار يمر على القط آمنـا ويضحـك عليـه ، إلـى أن امتـلأ وكـره مـن أنـواع المآكل والمطاعم ، وحصل له الفراغ من المخاوف والمزاحم ، واستطال على الجيران واستعان بطوائف الفيران على العـدوان ، فـافتكر الجـرذان يومـاً فـى نفسه فكرا أداه إلى حلـول رمسـه ، وهـو أن هـذا القـط وإن كـان عـدوا قديمـا ومهلكا عظيما لكنه قد وقع فى الانتحال وضعف عن الاصطياد لقوة الهزال ، وقوتى إنما هى بسبب ضعفـه ، وهـذا الفتـح إنمـا هـو حـاصل بحتفـه ، ولكـن الدهر الغدار ليـس لـه علـى حالـه استمرار فربمـا يعـود الدهـر عليـه وترجـع صحته وعافيته إليه ، فـإن الزمـان الكثـير الـدوران ينهـب ويَهَـبُ ويعطـى مـا سلب، ويرجع فيما وهب ، كل ذلك من غير موجب ولا سبب ، وإذا عاد القـط إلى ما كان عليه يتذكر من غير شك إساءتى إليه ، فيثـور قلقـه ويفـور حنقـه، ويـأخذه لأذاى والانتقـام سـهره وأرقـه ، فـلا يقـر لـى معـه قـرار ، فأحتـاج بـالاضطرار إلـى التحـول عـن هـذه الديـار ، والخـروج عـن الوطـن المـألوف ومفارقة السكن المعروف ، أمر صعب مشوم الكعب ، فلابد من الاهتمام قبـل حلـول هـذا الغـرام ، والأخـذ فـى طريقـه الإخـلاص قبـل الوقـوع فـى شـرك الاقتناص .

ثم إنه ضرب أخماساً لأسداس فى كيفية الخلاص من هذا الباس ، فـأداه الفكر إلـى إصـلاح المعـاش بينـه وبيـن أبـى خـراش ؛ ليـدوم لـه هـذا النشـاط ويستمر بواسـطة الصلـح الانبسـاط ، فـرأى أنـه لا يفيـده مـا يريـده إلا بـزرع الجميل من كثير وقليل ؛ خصوصاً فى وقت الفاقة فإنه أجلب للصداقـة وأبقـى

فى الوثاقة . ثم بعد ذلك يترتب عليها العهود ويتأكد ما يقع عليه الاتفاق من العقود ، وهو أن يلتزم الجرذان أن يقوم لأبى غزوان فى كل غداة من طيب الغذاء ما يكفيه لغداء وعشاء ، لأن الشيخ فى الدرس قال : خير المال ما وقيت به النفس ، إلى أن يصح جسده ويرد إليه من عيشه رغده ، ويكون ذلك سبباً لمعقود الصداقة ، وترك العداوة القديمة المساقة ، وإن تشترط دوام المحبة وازدياد الوداد والصحبة ، وأن لا يقصد أبو الهيثم أبا راشد بشىء من الأذى والشرور والمفاسد ويعمل هذا الهر بموجب ما قال الشاعر :

إن الكرامَ إذا ما أُسْهِلوا ذكروا من كان يألفُهم فى المنزلِ الخَشِنِ

ثم إن الجرذان جمع من الأخباز والأجبان ، واللحم القديد والمطعم المزيد ما قدر على حمله ونهضت قوته بنقله ، وقصد مقام الهر وسلم عليه سلام مكرم مُبِّر ، محب قديم وصديق حميم ، وقدم ما معه إليه وترامى بكثرة التودد والاشتياق عليه .

وقال : يعز على ويعظم لدى أنى أراك يا خير جار فى هذا الضرر والاضطرار ، ولكن العاقبة إلى خير وسيقبل السعد بأحسن طير ، فتقدم أيها الخيطل[1] وكل من هذا المأكل ، فإذا سددت خلتك كلمتك بشىء أستشير به خدمتك فإنه قد قيل :

إن الصداقة أُولاَها السلام ومن بعد السلام طعامٌ ثم ترحيبٌ
وبعد ذاك كلامٌ فى ملاَطفةٍ وضِحْك ثغر وإحسان وتقريبٌ
وأصلُ ذلك أن تبغى شمائلُها بين الأَحِبَّة تأبيد وتَأْديبٌ
لم تنس غيباً ولم تملل إذا حضروا قد زان ذلك تهذيب وترتيبٌ
إن الكرام إذا ما صادقوا صدقوا لم يُثْنِهم عنه ترغيب وترهيبٌ

---

(١) الخيطل : أسماء الكلب أو السنور .

فتناول القط من تلك السرقة ما سد رمقه ، وشكر للجرذان تلك الصدقة. و لما أكل فمه استحيت الحدقة ، ثم قال له : أنشد ما أنت يا أبا راشد قال : إن لى عليك من الحقوق ، مثل ما للجار الصدوق على الجار الشفوق وأردت أن يتأكد الجوار بالصداقة ، وتتراقى إلى درجة المحبة بأوثق علاقة ، وإن كانت بيننا عداوات قديمة فنترك من الجانبين تلك الخصلة الذميمة ، ونستأنف العهود على خلاف الخُلُق المعهود ، وتدبير الأمور على مصلحة الجمهور ، ونبنى القاعدة فى البَيْن على ما يعود نفعه على الجانبين ، وأذكر لك أشياء تحملك على ترك خلقك القديم ، وتهديك فى طريق الإخاء إلى الصراط المستقيم ، وهو أن أكلى مثلاً ما يغذى منك بدنا ، فضلا عن أن يظهر فيك صحة وسمنا ، ولكن إن أمنتنى مكرك وأعملت نظرك وفكرك إلى أن أستوثق باستصحابك وأبيت آمنا فى مجينك وذهابك ، ولو كنت بين مخالبك وأنيابك ، فإنى ألتزم لك فى كل يوم إذا استيقظت من النوم بما يسد خلتك ، ويبقى مهجتك صباحاً ومساء وغداء وعشاء ، وإن قلت إن ذلك شىء مجهول فأنا بنظير هذا المأكول ؛ فإن هذا الغذاء يكفيك عشاء وغذاء ، وما قصدت بذلك إلا رعاية لحق ، ولقد انستنى بتسبيحك بالليل والنهار ، وأظن وظنى لا يخيب إنك تبت إلى الله ورجعت من قريب ، وكففت عن أذى الجيران وعففت عن أكل الفيران .

ثم اعلم يا أسد الضَّيَاوِن[1] : إن لى من هذه المؤنة عشر مخازن قد أعددتها لمثلك ، وأنا أقدمها لمنزلك ، وأدخرها لأجلك ، والقصد أن أكون آمناً من سطواتك ساكناً فى صدمات حركاتك ، وذلك إنما يعلم بتأكيد الإخاء وتأييد المحبة والولاء .

فلما رأى الهر هذا البِرّ ، أعجبته هذه النعم وأطربه هذا النغم ، وأقسم

---

(١) الضياوى ، مفردها ضيون : هو السنور الذكى .

طائعاً مختاراً ليس إكراهاً ولا إجباراً ؛ أنـه لا يسلك مع الجرذان إلا طريق الأمان والإحسان ، وأنه لا ينوء إليه بقصد سوء بحيث تتأكد المحبة وتزداد الصداقة والصحبة .

فرجع الجرذان وهو بهذه الحركة جذلان ، وصار كل يوم يأتى أبا غزوان بما التزم به من الغذاء والعشاء كل صباح وعشاء ؛ إلى أن صح القط واستوى وسلمت خلوات بدنه من الخو والخوا[1] ، وصارت المحبة تنعقد كل يوم عقداً مجدداً ، ويزداد كل منهما فى الآخر محبة وتوداً .

وكان لهذا القط ديك وهو صاحب قديم نديم ، كلٌ منهما يأنس بصاحبه ويحفظ خاطره ، بمراعاة جانبه ، فحصل للديك تعويق عن زيارة الصديق، فغاب عنه مدة ، وكل منهما للفراق فى شدة ، فلم يتفق لهما لقاء إلا وقد حصل للقط الشفاء ، فسأل الديك صاحبه بماذا صارت علته ذاهبة ، وذاك الهزال بأى شىء زال .

فأخبره بأحوال الجرذ أبى جوال ، وأنهى أمره من الأول إلى الآخر وبالغ فى الشكر فى الباطن والظاهر ، وإنه كان سبب حياته ونجاته من مخاليب مهلكاته ،وأنه لم يكن مثله فى الأصحاب ، وقد صار أعز الأصدقاء والأحباب ، فغار الديك على الصاحب القديم واختشى أن يفسد ما بينهما المفسد الذميم ، فضحك مستغرباً وصفق بجناحيه متعجباً .

فقال له : مم تضحك ؟ فقال : من سلامة باطنك وانقيادك لمداهنك ، وحسن صنائعك مع المنافق مخادعك ، ومكارم أخلاقك مع ناقض لميثاقك ، وإصغائك لهذا الخبيث بمشوه الكلام ومموه الحديث ، ومن يأمن لهذا البَرَم[2] الواجب القتل فى الحِلّ والحرم ، المفسد الفاسق المؤذى المنافق الذى خدعك حتى أمن على نفسه ، واستطرق بذلك التمكن من أذاه ونجسه ، فتسلط فى الأذى كما يختار ، وانهمك فى الشر آمنا منك البوار ؛ كل ذلك بسببك

(١) الجوع .

(٢) الداهية اللئيم .

ومكتوب فى صحائف كتبك ، مع أنك لست بمشكور ولا بالخير مذكور ، وإن الذى شاع وذاع وملأ عنك الأسماع ؛ أنك ستحل عقده وتنكث عهده ، وتنقض الأيمان وتجازى بالسيئة الإحسان ، وإنه لم ير منك ما يسره وهو متوقع منك ما يضره ؛ وأعظم من هذا أنه آذى وحشر فنادى وبالشر بادى فقال : إنه أحياك بعد الموت وردك بعد الفوت ؛ ولولا فضله عليك وبره الواصل إليك لمت هزالاً وجوعا ولما عشت أسبوعا ، ولكنه أشبع جوعك وجلب هجوعك ، واستنقذ من مخاليب المنية بعد ذهابك رجوعك ، فشفاك وعافاك ، وصفا لك وصافاك وكفاك المؤنة وكافاك ، وإنك كافيته مكافأة التمساح وجازيت حسناته بالسيئات القباح ، ولم يكن لإحسانه إليك ولا لما مَنَّ به عليك سبب ولا علاقة؛ سوى طهارة نفس زكت أخلاقه ، ولا لإساءتك إليه سبب تنقم به عليه ، إلا ما أسداه من مكارم شيمه الواصلة إليك وفوائد نعمه السابغة عليك . وقد أشاع هذا كله فى الشوارع والحارات خصوصاً فى هذه المحلة .

ثم أقسم بمن عطفه عليك وساق فضله إليك ؛ أنه جعلك محتاجا إلى نواله ، وأسبل عليك لباس صدقاته وأفضاله ؛ ليستوفين منك ما صنعته وليحفظن عليك ماعليه ضيَّعته ، وليوقعنك فى طوى[(١)] بلية يعجز عن خلاصك منها كل البرية ، فليريحن منك جنس الفار وليخلدن ذكر هذه القضية فى بطون الأسفار . وبالجملة : فهل سمعت أن جرذانا صادق هرة ، أو اتفق بينهما مرافقة فى الدنيا ولو مرة ، ومناصحة القط والفار كمصادقة الماء والنار :

فَأَنْتَ كَواضعٍ فى الماءِ جَمْــراً وأنت كمُـــودِع الريـــح التُرابَــا

فلما سمع القط هذا الكلام تألم باطنه بعض ايلام وما صدَّق ، ولكن ظن واشتغل خاطره لأمرٍ عَنَّ وتلهب ، واشتعل ومن يسمع يخل ، وقال للديك : جزاك الله عنى خيرا ، وما أكثر شفقتك طيرا ، ولكن من قال لك هذا المقال ؟

---

(١) طوى : وادى بالشام . معجم البلدان (٧٩٨٣) .

قال : أنت مُحِب وعلى ومودة الجرذان مُكِبٌ ، وقد قال سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم : ((حبك للشيء يعمى ويصم))[1] . وقال الشاعر :

وعين الرضا عن كلِّ عَيْبٍ عَمِيَّةٍ كما أنَّ عينَ السُّخْطِ تُبدى المَسَاويا

ولقد غرك بلقيمات من الحرام والسحت المنغمس فى الآثام ، وجعلها بمنزلة حبة الفخ فلا تشعر بها إلا وأنت فى السلخ ، قد وقعت ولا رفيق ولا أخ هناك يعرف تحقيق هذا الكلام ، ولكن أنت الآن راقد مثل النيام ، والكلام ما يفيد ولابد أن الله تعالى يجرى ما يريد ، وما فى إشاعة الكلام طائل وكأنك أنت القائل :

ظَنَّ العَذُولُ بأن عَذْلِى يَنْفَعُ قَلْ ما تشا فَعَلَىَّ أن لا أسمع

وما قلت لك هذا الكلام إلا من فرط الشفقة والضرام ، ورعاية لحق ما وجب على من القيام ، وحفظاً للصداقة القديمة ، والمودة التى سحائبها ديْمَةُ ، وأنا لو غششت كل أحد ما خطر لى أن أغشك ، وأنا لا استشهد على صدقى إلا يقينك الساكن عشك ، فرجح جانب صدق الديك كفاك الله شر من يؤذيك ، وقال القط فى خاطره بعد ما أجال قداح ضمائره : هذا الديك من حين انفلقت عنه المبيضة ، وسرحت أنا وإياه من الصدقة فى روضة ، ما وقفت له على كذب ولا سمعت عنه أنه لزور مرتكب ، مع أنه مؤذن أمين بين ظهور المسلمين وهو بالصدق قمين[2] ، وما حمله على هذا إلا المحبة وقديم المودة والصحبة ، وهو أبعد من أن يكذب ويخدع وأى قصد له فى أن يغش ويتصنع.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود : كتاب الأدب (١١٦) والإمام أحمد فى مسنده (٥/١٩٤) قال الحافظ ابن حجر : الحديث حسن . انظر كشف الخفا (١/٣٤٣) .

(٢) جدير .

وتردد أبوهريرة فى تيه الخيرة بين الديك والفريرة : ثم قال للديك : وقاك الله شر أعاديك فكيف أعرف صدق هذا الخبر وهل للدلالة على سوء طويته علامة تنتظر قال : نعم ورب الحرم ، علامة ذلك : أنه إذا دخل عليك ونظر إليك أن يكون منخفض الرأس مجتمع الأنفاس ، متوقعاً حلول نائبه ، أو نزول مصيبة صائبة ، أو شمول بلية غائبة ، ملتفتاً يميناً وشمالاً ، متخوفاً نكالا ووبالا طائفاً يتنقب خائفاً يترقب ، وذلك لأنه خائن ، والخائن خائف وهذا بائن .

وبينما هما فى المحاورة والمناظرة والمشاورة ، يتجاذبان القيل والقال دخل المفسد أبو جوال ، وهو غافل عن هذه الأحوال فرأى أبا القيظان يخاطب أبا غزوان ، فخنس وقهقر وتخوف وتشور وهو غافل عما قضاه الله وقدر ، فاشمأز لرؤيته الديك وأبرألَ[1] وانتغض[2] واشْمَعَلَّ[3] ، فارتعد الجرذان من شيخ الديكة لما رأى منه هذه الحركة ، وانتفش وانزوى ، وتقبض وزوى ، وأشبه بغدادياً بلع الدوا ، ونظر يميناً وشمالاً كالطالب للمسفر مجالا ، والقط يراقب أحواله ويتميز حركاته وأفعاله فتحقق ما قاله أبو سليمان، ونظر إلى الجرذان نظر الغضبان وهمز واكفهر[4] ، ورقصت شواربه وازبأر[5] ، فاضطرب الجرذان ، وطلب الأمان فنسى السنور العهود والإيمان ونقض عرق العداوة القديمة والعدوان ، وطفر[6] على الجرذان ، وأدخله فى حيز خبر كان ، وأخلى منه الزمان والمكان .

---

(١) استعد للشجار .

(٢) قام للقتال .

(٣) ثار وعزم المضى .

(٤) أى عبس وجهه من شدة الغضب .

(٥) انتفش علامة على الغضب .

(٦) وثب .

وإنما أوردت هذا التنظير ، أيها الصاحب البصير ؛ لفائدتين جليلتين عظيمتين .

إحداهما : الإعلام بالتحقيق أن العدو العتيق لا يتأتى منه صديق .

ثانيهما : الإعلام بأن الواجب على الحكام أن لا يعجلوا بالانتقام ، فربما يورثهم الاستعجال الندامة في المآل ، في حالة لا يفيد العذل والتفنيد وعند ذلك لا يمكن التدارك ؛ بل إذا نُقِل إليهم وأُورِدَ عليهم ما يثير غبار الغضب ويُحْمِي من نار السخط ، اللهم لا يفلتون زمام التثبت والتفكير من أنامل التأني والتدبير . خصوصاً السلاطين والملوك الأساطين ؛ فإن قدرتهم واسعة وأطراف أوامرهم شاسعة ، وأوهاق[1] اختيارهم طويلة ، ومرامي المراد لمرامهم منيلة ، وآذان الكون لأوامرهم سميعة ، وعين المكان لمراسيمهم مراقبة مطيعة ؛ فمهما أرادوا من النفع أوصلوا ، ومهما اختاروا من الضر فعلوا ، وذلك في كل حين ممسين أو مصبحين . ولذلك قالوا : القاضي لا يحكم حكماً إلا وهو راضي ، ولا يحكم وهو غضبان ، وهو مشغول الخاطر ، ولا غرثان . فإن وجدوا طريقاً الى الخير بادروا إليه ، وإذا قصدوا إيقاع شر توقفوا لديه . ولا يهملوه ؛ بل يَسبروا غوره إلى أن يقفوا عليه . فربما يكون من مداخله عدو ، أو حاسد ، أو يتعاطى من له غرض فاسد . ثم اعلم يا ذا التبصرة والفضل والتذكرة ، أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره .

ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره فلما رعا يسار هذا الحوار قال : ما أزهى هذه النصائح وأزكى ما لها من روائح ، وأنا أقبلها ولا يزال مرتشف سمعي مقبلها ، وعلى ذلك أعاهدك ، ومهما رأيت غيره أعاقدك فإنه للملك عين المصلحة وللملك زين ومسلحة ، وأيضاً فاشترط ما بدا لك مما يزين حالك ، ويصون مالك ومآلك .

---

(١) أحبال .

قال : وأريد أن تكون حرمتى موفرة ، وكلمتى معتبرة ومنزلتى على أقرانى مرتفعة ، ومكانتى فى الممالك متسعة ؛ بحيث تكون مزيتى ظاهرة ، ومرتبتى لأكفائى باهرة ، وكلامى فى محل الإصغاء والقبول متصلاً بالنجاح فى السؤال والمسئول .

فإن حسن العهد ، وحفظ الود ورعاية الحقوق ، القديمة السابقة ، والخدمة المستمرة المتلاحقة دليل على كمال المروأة والوفاء ونهاية الفتوة والصفاء ؛ لاسيما من الملوك والأكابر فى حق خدمهم الأصاغر . ففى الحقيقة رفعة الخادم ، وكمال حرمته من رفعة مخدومه وعزته ، وكل من رفع قدر خدمه وحافظ على حفظ حشمه ، ومنع جانبهم ، ورعى حاضرهم وغائبهم ؛ إنما حفظ أطراف حشمته ، وراعى جانب عظمته وحرمته ، وكل كبير امتَهَنَ خدامه ، وأذل جماعته وقوامه ، ولم ينزلهم منازلهم ، ولا عرف فضائلهم وساوى بأواخرهم أوائلهم ؛ فإنما أضاع مكانة نفسه ، ولم يفرق فى الفكر بين يومه وغده وأمسه ، وإذا لم يُصْغ الملك لكلام الوزير ، واستقل بأوضاع ناصحه والمشير ، فابتذله وانتهزه واستقله واحتقره ؛ خصوصاً فى المجامع والمحافل بين العساكر والجحافل ؛ فأى حرمة تبقى له عند البقية من سائر الخدم والرعية ، وأى مرسوم وكلام يسمع له عند العوام . فيتكدر خاطره ، وتتغير سرائره ، فيدعوه ذلك والعياذ بالله إلى شق العصا إذ صار على باب مخدومه معلقا كالحصى ، وقدره فى المكانة ، وقوله فى البلاغة صار كالزيف فى الصاغة والفسو فى الدباغة ، وناهيك أيها الخبير ما قالته لأمها الزاغة[1] ، قال يسار : أخبرنى بذلك يا جهينة الأخبار .

[٥١] **قال** : ذُكِرَ أنّ زاغة فى بلد مراغة . انتشى : لها فرخه . انتشر لها بين الطيور صرخة ، وكانت ذات بهجة لطيفة ، وصفات ظريفة ، وتربت يتيمة

---

(١) الزاغة : طائر يشبه الغراب أصغر منه فى الحجم .

بالدلال . وجمعت بين فنون الكمال . فلما بلغت مبلغ الزواج خطبها من صنوف الطير الأزواج ، وترادفت عليها الخطاب ، ودخلوا على أمها فى ذلك من كل باب . فكانت تأبى عليهم ، ولا تلتفت إلى بذلهم ولا إليهم . إلى أن بلغ خبرها إلى بومة كريهة الوجه مشومة ، بينها وبين أم الزاغة صداقة قديمة . فخطبتها لابنها ، وأبانت للطير مزيد غبنها ، فاستثارت الأم إبنتها . وأظهرت فى ابن البومة رغبتها ، وقالت : أى ربية الخير قد رغب فيك أصناف الطير. فكنت أدافعهم ، وأُسَوِّفُ بهم وأمانعهم ، وقد اشتهر صيتك بين الكبراء ، وخطبك منى الأمراء والوزراء ، وأنا على المطاولة ، والرد والمقاولة وقد استحييت منهم ، واختشيت غائلة ما يصدر عنهم ، ولم أفعل ذلك إلا رعاية لحالك ، وخوفاً من زوج ظالم بدرك غير عالم ، يستضعف جانبك ، ويكره أهلك وأقاربك ، ثم لا نقدر على مقاومته ، ونتعب فى مرافقته ومفارقته؛ لاسيما إن صار بينكما معاشقة . فيصير نكاحكما كنكاح الدماشقة . كل يضمر السوء لصاحبه حالة المعانقة وكل يا أحسن طائر مَعْنِيٌّ بما قال الشاعر:

رأيتُ الَّذى لا كُلُّه أنْتَ قَادِرٌ عَلَيْه ولا عن بَعْضِهِ أنْتَ صَابرٌ

ونعوذ بالله من اختلاف الوداد ، وأن يصير نكاح السنة كنكاح أهل بغداد . فإن صادفتما فى محله مثلى أبى بكر الربانى ودله أو مثل الفرغانى وعلى أو جاره تشبه عيشة تلى . خرجتما من يدى وزدتما نكدى فكنت لهذه الأمور أخشى تقلبات الدهور ، وأرد خطاب الجمهور ، وقد خطبك يا كريمة ابن صاحبة قديمة ، وهى البو ـة الفلانية ، وهى صاحبة هنية ، وأخلاقها رضية ، وهو شخص فقير حقير ضعيف الحال حقير ، نقلبه فى أيدينا كما نريد ، ونتصرف فيه تصرف الموالى فى العبيد ، لا فى الطير جنس يحبه بل كليم يكرهه ويسبه ولا له ناصر علينا ، ولا جارح يدلى به إلينا ، فهو تحت طاعتك كما تحبين ، وفى ربقة إرادتك كما تريدين ، لا كالحمام يتطوق بطوق

الفخر ، ولا كالهدهد يتتوج بتاج الكِبْر . فما رأيك فى هذا الأمر .

فقالت الزويغة مقالة بليغة : حَفَظْتِ شيئاً وغابت عَنْكِ أشياء ، ما أصنع بزوج ممتهن ، وببغض الأجناس ممتحن . مكسور مهجور يُتطير[1] منه بين الطيور هذا يخطفه ، وهذا يلقفه ، وهذا ينقره ، وهذا ينشده ، وهذا يأثره ، وهذا يكسره ، وإذا لم يكن للزوج حرمة ، ولا تسمع له كلمة خصوصاً عند زوجته وأهل بيته وعترته . فأى قدر يكون له عند غيرها وأنَّى ينشر بالسعد جناح طيرها ، وقد قال رب السموات والأرض ، ومالك الطول والعرض ، والبسط والقبض ، والرفع والخفض **﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾** [النساء:٣٤] وقال من جعلهم قوامين وذواتنا منعوجة **﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾** [البقرة:٢٢٨] ومقدار المرأة بين جيرانها وأهلها ؛ إنما يعرف بقدر حرمة بعلها وأنا كيف يبقى حالى ، وبالى وما علىَّ ومالى بين جيرانى وصواحبى ، وأهلى وأقاربى ، إذا كان زوجى ذليلا مهيمنا . محتقراً بين الناس حزينا ، والله لا يكون لى بزوج ، ولو بلغ رأسه إلى الأوج، ولا أمد إليه باعى ، ولا يرفع له فى مركب الزوجية شراعى .

وإنما أوردت هذا المثال يا شبه الغزال ؛ لأُبين أنه إذا لم يكن لى فى دارك عِزَّة ، ولا يرفع مكانتى ومكانى نشاط وهزة ؛ فلا يرجونى الصديق الموافق ، ولا يخافنى العدوة المنافق ، فيختل أمرى ، ويضيع فى غير حاصل عمرى ، وإذا ما أهمل مرسومى تعدى الوهم إلى مخدومى .

قال : يسار أبشر أيها الوزير المشفق والكبير ، المحقق والحكيم ، الماهر المدقق بالدرجة العلية ، والمرتبة السنية والكلمة المقبولة ، والوظيفة الفاضلة لا المفضولة ، ولكن أنا أيضاً لى عليك شروط تزين عقودها الملتفات

---

(١) يتشاءم .

فى المروط[1] هن لدار السعادة أبواب ، وللترقى إلى درج السيادة أسباب ، ومثلك لا يدل على صواب ؛ وهى أن تتقلد العمل مبسوط الأمل بجميع ما قررته ، وتتعاطى ملازمة كل ما حررته من إقامة ناموس المملكة المبجلة ، ورعاية شرائط السلطنة المفضلة ، ومحافظة جانب مخدومك ، والإنهاء إلى مسامعه جميع ما فى معلومك وتقديم مصالحه على مصالحك ، ومعاملة رعيته بالجهد فى نصائحك ، وكفه عن المظالم ، والعدول به عن طريق المآثم ، والغيرة على دينه واعتقاده ويقينه أكثر من الغيرة على دنياه ، وفى الجملة : لا يكون الملك إلا لله . بحيث لا تكون من قبيل ﴿**لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف:٢] وإياك والرشا[2] والبرطيل[3] ، والدخول لعرض الدنيا فى الأباطيل ، وتَوَقَّ ظلم الرعية للأغراض الدنيوية ، أو الأعراض الدنوية ، واتق دعوة المظلوم ، وأن يصل سهاما إلى مولانا المخدوم ، واعلم أننا إن بنينا أساس الأمور على قواعد الظلم والشرور . فنحن من الخاسرين ، ومن الذين ظلموا والله لا يحب الظالمين ﴿**وَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام:٤٥] بل ابن الأمور على أساس التقوى ، فإنك بالتقوى تقوى ، وبراويتها تروى . فمن تحلى بالقضايا العاطلة وتشبث بأذيال الأمور الباطلة ، ولم يقصد وجه الله فى حركاته وسكناته ، وأدخل شوائب الرياء والسمعة فى أعمالة وطاعاته ؛ لا يمشى له حال ، ولا يصلح له مال ولا مآل ، ويصيبه ما أصاب السائح الذى أدعى إخلاص العمل الصالح ثم شرع فى حركته ، وأخلص فظهرت آثار براءته . فلما قصد الأعراض الدنية فسد ظاهره بفساد النية . فسأل المشرقى عن حال ذلك الشقى .

[٥٢] **قال** : كان فى أقصى بلاد الصين طوائف غير ذى عقل رصين،

(١) المروط ، مفردها مرط : كساء من الصوف أو الحرير .

(٢) إياك واعطاء الرشوة .

(٣) الرشوة .

أُنْبِتَ لهم فى بعض الجبال ، زراع القدوة ذو الجلال فى رياض النزاهة والكمال ، شجرة ذات بهجة وجمال أصلها فى أرض الملاحة ثابت ، وفرعها فى أصل المحاسن نابت ، وغصنها إلى سماء العلى واصل ، وورقها كعقود الجُمَان[1] بالبهاء متواصل ، لا سموم الصيف[2] يزيل زهرتها ، ولا عواصف الخريف تذهب خضرتها ، ولا صرصر الشتاء[3] يعرى أغصانها ، ولا لواقح الربيع تذرى أفنانها ؛ فاعجب بحسنها أهل تلك الديار وأشربوها إشراب بنى إسرائيل عجلاً جسداً له خوار ، ثم تفانوا فى حبها وتهالكوا على قربها . فعبدوها كما عبدوه ، وأعتقدوها كما اعتقدوه ، واستولى على عقولهم الشيطان ، وصار يخاطبهم من الشجرة واحد من الجان ، فزادهم فيها اعتقاداً، وعمهم بعبادتها كفراً وعناداً .

فقدم تلك البلاد فقير من السائحين وهو من عباد الله الصالحين ، فلما رأى تلك الحالة ؛ أفزعه ذلك وهاله ، وأخذته غيرة الإسلام ، وغضبة دعته إلى القيام ؛ فأخذ فأساً وقصدها ليقطع ساقها وعضدها.

فلما قرب إليها ، وأراد وضع الفأس عليها . سمع منها صوتاً خوفه، وعن مراده أوقفه ، فقال : أيها الرجل الصالح والقادم السائح ، فيم ذى الهمه، وعلام هذه العزمة المهمة ، ومم قصدك بهذه الصدمة ، فقال : غيرة الله أيها المُضِلُّ اللاَّهِ شجرة تعبد من دون الرحمن ولا يغار لهذا الشأن إنسان ؛ فلأقطعنك أيتها الشجرة المضلة ، ولأجعلنك حطباً ومثله ، فإنك قد أضللت كثيراً من الناس ، وفعلت ما لم يفعله الوسواس الخناس ، وإنك لا تنفعين ولا تضرين سوى إنك إلى النار تجرين .

---

(١) اللؤلؤ .

(٢) حر الصيف .

(٣) شدة برد الشتاء .

فقالت :أيها الرجل الزاهد الصالح العابد أنا ما آذيتك ولا ضاررتك ، وإن رأيت نفعتك وبررتك ، وحاشاك أن تؤذى من لا آذاك ، وأنا أعلم أيها الرجل الكبير أنك غريب وفقير ، وما أقدمك على هذا البأس ، إلا الغربة والإفلاس ؛ فكف عن هذا الأمر ، واطفئ نائرة هذا الجمر ، وارجع إلى منزلك ، واشتغل بطاعتك وعملك ، وأنا أوصلك كل نهار ديناراً ذهباً نضاراً كاملاً وافياً معياراً، يأتيك هيناً ميسراً كل صباح مبكراً إذا استيقظت من رقدتك تجده موضوعاً تحت وسادتك ، وهذا هو الأليق بحالك وأفرغ لخاطرك وبالك وأخلص لك من ورطات المهالك ، وإذا أصلحت مع الله سريرتك وطهرت من أدناس الدنيا سرك وسريرتك ؛ فاترك الناس ولو كانوا جيرتك ، أو أهلك وعشيرتك ، وعليك بخويصة نفسك ، فإذا أنقذتها من الورطات فأمسك . وقد قال منزل القرآن ليحرسكم ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ**﴾ [المائدة:١٠٥] .

فلما سمع بالدينار ألهاه الطمع والاغترار فبردت همته ، وضعفت في الله قوته ، وتركها ورجع ، وترك القيام وهجع . فلما أصبح الصباح وحاز بالصلاة الفلاح بادر إلى الفراش ، وطلب المعاش . فوجد الدينار كما ذكره الشيطان وأشار ؛ فالتقفه وابتهج ، وتحقق أنه فتح باب الفرج ، واستمر على ذلك أسبوعاً والذهب عنده مجموعاً .

ثم بعد ذلك قصد الفراش بسرور واهتشاش[1] . فلم يجد شيئاً من الذهب فتحرق قلبه والتهب ، فأخذه الحمق والقلق وأخذ الفأس وانطلق ، فلما قرب من الشجرة نادته بألفاظ عَكِرة : قف مكانك واذكر شانك وقل لي فبماذا جيت فلا حييت ولا حييت ، فقال : جئت لأقطعك ، ومن الأرض أقلعك ؛ غيرة على الدين وقياماً بحق رب العالمين .

---

(١) انبساط وسرور .

فقالت : كذبت ؛ إنما غرت وسيبت وقمت وقعدت ، وبرقت ورعدت ؛ لفقدك الذهب الذى عنك ذهب ، وإنما كانت الغيرة الصحيحة ، والقومة المليحة الناهضة النجيحة القومة الأولى ، فإنها كانت والحق قد تجلى ، فلو قامت الخلائق لردك واجتهدوا فى منعك وصدك لما ظفروا بك ، ولا قاموا بحروبك . وأما الآن فهذه الغضبة الفاجرة القحبة[1] التى حصلت بواسطة عدم الدينار ، فهى التى أثارت منك ما أثار فلو دنوت منى خطوة ، وتقدمت من مقامك رتوة[2] دققت عنقك ، وشققت زِقّك[3] ، وقد قلت إنى لا أضر ولا أنفع ولا أجلب ولا أدفع ، فأما المنفعة يا صلمعة بن قلمعة[4] ، فإنك رأيتها فى الدنانير التى لقيتها فتقرر النفع يا مستحق الصفع . وأما المضره فقسها على المنفعة يا أبا مُرَّة[5] . فإن الذى له قدرة على المبرة ربما يقتدر على الإيذاء والمضرة ، وإن شئت تقدم وجرب لتعلم ، واخبر واسْبِرْ وانظر كيف أنثر منك الرأس بهذا الفأس ، وحقق رصدق أن كتفك حملت حتفك ، فبهت الرجل وتحير وخاف وخار وقهقر ، وانقطع حبل رجائه ، وأفلت يتلفت إلى ورائه.

وإنما ذكرت هذا ؛ لتعلم أيها الوزير المكرم ، أن كل أمر لا يقصد به وجه الله ، فإن عقباه الندم وإن حَسُنَ أو لاه ، وكل قصد ليس لغرض صالح فإن شجرة يأسه لا تثمر إلا الفضائح ، فتترك الشروع فيه أولى ، ومحو صورته من لوح الضمير أَجْلَى ، ومن لم يترك مالا يعنيه. وقع فيما لايرضيه، وحل به من الفضيحة ، والإيلام ما حل بذلك المفسد فى مدينة السلام . فسأل الزنيم المشرقى البصير الأفريقى كيف تلك الفضيحة . ليأخذ منها لنفسه النصيحة .

---

(١) الفاجرة الكاذبة .
(٢) خطوة .
(٣) جلدك .
(٤) صلعمة بن قلمعة : مثل يُضرب لمَنْ لا يَعرف أباه .
(٥) أبو مُرّة : كنية الشيطان .

[٥٣] **قال** : كان فى مدينة بغداد صانع حرير ، أستاذ خبير ، له جار سنى الجوار، وزوجة تخجل البدر عند الكمال والشمس قبل الزوال ، وذاك الجار الجانى ، يدعى ابن الفرغانى . ففى بعض مطاره لمح زوجة جاره ، فتعلق قلبه بها واشتعل من هواها نار أحشائه بهبوبها ، فأخذ يلهو بها إلى أن أفسدها ، وإلى الضلال أرشدها ، وكان الزوج مغرماً بها ، فوجد على حالها منبهاً ، فصار يراقبها من كَلَفِه ، ولا يغفل عنها لشدة شغفه ، ويجتهد فى كفها عن الخيانة ، وأن تحفظ الغيب وتؤدى الأمانة .

ففى بعض الأوقات رأى بعض فى الطرقات صياداً ومعه طير ، قد أوثق رجليه بسير ، فسأله عن طيره ، وإلى أين قصده فى سيره ، فقال : هذا من الجوارح السوانح البوارح يحاكى الصوادح ، ويبا كى النوائح ، وفيه سر عجيب ، وأمر غريب ، وهو أنه إذا كان فى بيت ورأى فيه على صاحبه كيت وكيت أخبر زوجها خبره ، وقص عجره وبجره[١] ، وقد رغب فيه رئيس يشتريه فأنا ذاهب به إليه أقدمه لديه ، وأمتن به عليه ، فرغب فيه الحريرى واشتراه ، وأتى به إلى داره وقال لزوجته : أكرمى مثواه ، وأحسنى مأواه ؛ فإنه يخبر بكل ما رآه ، وهو من أحسن صفاته ، وأعجب أموره وحكاياته ، ومهما فعلت زوجة الإنسان ذكره على وجهه كما كان .

فقالت : نحن بحمد الله فى بركة ، آمنون مما ينقل عنا من حركة ، فإن رأى شيئاً يهوله لا يكتمه بل يقوله ، فتركه الزوج وذهب ، فدخل الحريف[٢] الملتهب ، فرأى المرأة وحدها والطير عندها ، فأخذ فى المهارشة[٣] ، ومد يده للمناوشة[٤] ، فقالت : كف يدك واحفظ الذمام ، فإنه قد حصل علينا رقيب نمام ، فكف يدك يا حبيب لئلا نُصاب ولا نصيب ، وتفكر فى قول الشاعر المصيب :

إذَا ما خَلَوْتَ الدهرَ يوماً فلا تقل ... خَلَوْتُ ولكن قُل علىَّ رقيبٌ

---

(١) عيوبه .
(٢) الحريف : من مال عن الجادة وانحرف عن الطريق المستقيم .
(٣) الملاعبة .
(٤) المزاح .

فقال : وأين الرقيب يا ست الجار والحبيب ، قالت : هذا الطير ليس غير فإن له خواص عجيبة ، وفيه أشياء لطيفة نجيبة ، منها أنه نمام ، ومهما رآه أو سمع من الكلام ، فإنه يفض عنه الختام ، ويذكره لصاحب البيت على التمام ، فقهقه بصوت عال ، وسخر منها وقال : صدق سيد المرسلين الذى قال : ((النساء ناقصات عقل ودين))[1] . ثم أقسم بحياتها وحسن ذاتها وصفاتها، ليولجن القضيب فى الكثيب[2] ، بمرأى من ذلك الرقيب ، حتى إذا فرغ من أمره يمسح فى منقاره رأس أيره[3] ليعلمها صحة ما أوهمها . ثم حاورها وغلبها وساروها وقلبها ، وحل الصدر بالتكة[4] وتعلقت الحلقة بالسكة[5]، وامتزجت الألف العربية بالكاف الكوفية ، والتهم زرالوردة التصيبية شفاه الوردة النسرينية ، واستمرا فى أخذوعطاء ، بلا غطاء ولا وطاء ، كأنهما أفواج الحجاج ، أو ثباج الأمواج[6] ؛ فى شيل وحط وقبض وبسط وهرج ومرج ، ودخل وخرج ، واستمرا من نحو هذا التصريف فى بحث الرفع والجر ، ومن علم المطاردة والركوب فى صنعة الكر والفر ، ومن الزندقة والإلحاد فى عالم الحلول والاتحاد ؛ إلى أن دفق الإبريق العقيق فى قدح اللجين[7] شراب الرحيق ، وقد أنشد الحريف هذا النظم الظريف وهو :

لو تنظر الرقبا وقد عانقته ... والشَّمْعُ مشتعلٌ وبابى مُقْفَلُ
طوْرا أُشَاهِدهُ وأَرْشُفُ تَارَةً ... وأَضُمُّه من بعد ما أَتَأَمَّلُ
وإذا تَعشَّى ذيلُ ثوبى بَانَ لى ... من جيبه شيءٌ عليه المَقْتَلُ

---

(١) الحديث أخرجه البخارى : كتاب الحيض ، باب ترك الحائض الصوم (٣٠٤) .
(٢) الكثيب : التل من الرمل ، والمعنى الوقوع بها أى الجماع .
(٣) قضيب الرجل .
(٤) ما يُشد به السروال .
(٥) كناية عن الجماع .
(٦) ثباج : الموج العالى ، ومعنى ثباج الأمواج حركة الجماع .
(٧) أى الوصول إلى تمام نشوة الجماع والانتهاء منه .

فلما سال الميزاب بما جرى ﴿وقضى زيد منها وطرا﴾ [الأحزاب:٣٧] نهض ليبر قسمه حسبما ميزه وقسمه ، وأدنى من منقاره غرمولة[1] ، وكان للطائر مدة لم يتناول مأكوله ، فتصوره قطعة لحمة قدمها إليه طعمة ، فأنشب مخاليبه فيه فاستغاث بملء فيه ، وكاد أن يغمى عليه ، واستعان بحبيبة قلبه إليه ، فأقبلت المرأة كالحدأة فأشار عليها أن تكشف عن ساقيها ، وترى الطير بظرها وحمرته ، فربما يلتهى به ويترك آلته ، فتكشفت وأدنته إليه وعولت فى خلاص صاحبها عليه ، فوثب لشدة قرمه ، وتأثير الوجع وألمه ، ليلهم ذاك الفليم[2] ، فأنشب مخاليب جله الأخرى فى فليم تلك البظرا ، فاشتبكا وفى البلاء اشتركا ، وبينما هما فى تعاظل الكلاب[3] وإذا بالزوج قد دخل من الباب ، فرآهما على تلك الحال من الاشتباك والإعتظال ، ونقل الطير ما قال بالأفعال دون الأقوال ، فصح قوله وفعله ، وفعل معهما ما يجب فعله .

وإنما أوردت هذا البيان ؛ لأعلم جنس الحيوان أن الشروع فيما ليس فيه منفوع ، يجب الإبعاد عنه والفرار منه ، وعدم الإصغاء إليه والتوجه والإقبال عليه ، ولهذا قال : النبى النبيه صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء ، تركه ما لا يعنيه»[4] . قال المشرقى : ما بقى يا تقى ، إلا أن ترتقى ، فلقد طال البيان وضاع الزمان :

فانهض هُدِيتَ إِلَى ما رُمْتُه عَجِلاً   فالدهر عاتٍ وللتأخير آفاتِ

وكانت هذه المحاورة تحت ظل شجرة فيها وكر حمامة ، وكان لها

---

(١) إير الرجل .

(٢) أى فرج المرأة

(٣) أى ركب بعضها بعضاً .

(٤) الحديث أخرجه الترمذى : كتاب الزهد ، باب (١١) (٢٣١٧) وقال : هذا حديث غريب . وابن ماجة كتاب الفتن ، باب كف اللسان فى الفتن (٣٩٧٦) .

بالبلد إقامة فى برج رجل من أهل الزعامة . ثم اختارت العزلة ، واحتسبتها نعمة جزله . فاختارت هذا المقام ، ولها فيه عدة أعوام فسمعت جميع ما قالا من مبدئه إلى منتهاه . فلما وعت ما اتفقا عليه ، وتداعيا إليه ، أخذت تضرب أخماساً لأسداس ، وتتأمل فيما يتجلى من عرائس معانيه من القدم إلى الرأس، وتجيل فى صور مبانيه قداح النظر ، وتلاحظ سيرة فحاويه بلوامح الفكر[1] ، وتجوز مذاهبه ، وتروز عواقبه[2] ، وتقيس مداركه بمعارجه ، وتميس فى مداخله ومخارجه[3] ؛ فأدى قائد فكرها ورائد نظرها إلى أنه ربما يكون لهما شان ، وعلو مكانة ومكان ، فإن محاوراتهما وما مر من مناظراتهما كانت منطوية على ذكاء وفطنة ، وتجارب وحكمة وعلو همة ، صادرة عن فكر مصيب ، ورأى له فى السداد أوفر نصيب ، ولم يبق لهما فى القدر إلا مساعدة القضاء والقدر ، وإذا كان الأمر كذلك ، فالأليق فى قطع هذه المسالك المبادرة إلى التعرف بهما وإعانتهما والتقرب إلى خواطرهما ، ومساعدتهما على ما هما فيه ، ومساعفتهما بما تصل إليه اليد وتحويه ؛ لأنهما فى حالة الشدة وزمان الانفراد والوحدة ، محتاجان إلى المساعدة والمساعفة والمرافدة[4] ، وفى مثل هذه الحالة تظهر الفضيلة ويتحملان المنة والجميلة ، وتقع مساعدتى أحسن موقع، ويتميز لى عندهما أرفع موضع ، فإنه إذا علا شأنهما وارتفع بدون معاونتى قدرهما ومكانهما ، واجتمع عليهما الجنود وأقبل إليهما الوفود ، وكثرت الحفدة[5] والأتباع ، وتكاثفت العساكر والأشياع ، فما يظهر لمن يقرب إليهما ويترامى لديهما إذ ذاك كبير فائدة ، ولا كثير عائدة ،

---

(١) أى بالتدبر والتفكر .

(٢) تنظر وتتأمل العواقب .

(٣) تتمهل فى مبادئه وعواقبه .

(٤) المعاونة

(٥) الخدم والأعوان .

ثم إنها توكلت على الرحمن وصدحت على الأغصان بقولها :

على الطائر الميمون والبِشْرِ والسَّعْدِ سَمَوْتَ إلى العَلْيَاءِ نَهْداً على نَهْدِ[1]

ثم هبطت وبين أيديهما سقطت فأذكرت قول الرئيس[2] هذا الشعر النفيس :

هَبَطْتَ إلَيْكَ مِن المَحَلِّ الأَرْفَعِ وَرَقَاءُ ذَات تَعَزُّزٍ وتَمَنُّعِ

وقبلت الأرض ووقفت فى مقام العرض ، ولزمت شرائط الحشمة ، وأدت مواجب الخدمة ، وهنأت نفسها والكون بسلطة الملك يسار ذات الصون، وقالت : إنى لكما نعم العون ، وموطنى فى هذه الشجرة ، وأنا لأوامركم مؤتمرة ، وقد وعيت ما قلتماه وما دار بينكما وذكرتماه ، ورأيته صادراً من مشكاة السعادة مشرقاً بأنوار السيادة ، سهامه نافذة فى قلب الغرض ، وسيتعبد جواهر الرعابا بأدنى عرض ، فإن حسامه مطيق لفصل القصد ، وشأنه سيبلغ أعلى اليمن والسعد ، وها قد جئت مبادرة واردة منهل الطاعة وصادرة ، فأمرا لأمتثل ، وانظرا لأحتفل ، وتحكما لأطيع ، وتكلما فإنى سميع ، فإن أشرتما فالقصد قاف ، وإن استشرتما فالرأى كاف ، وإن خبرتما فالحزم واف ، وإن استنهضتما فالعزم شاف ، وإن استخدمتما فالعبد خادم صاف مصاف .

فلما رأيا من الحمامة هذه الكرامة تبسم الزنيم وتفاءل ، وأشرق وجهه وتهلل وتيمن بطلعه الورقا ، وعلم أن أمرهما يرقى ، وقال يسار: هذا من علامات اليسار ، وجبر الانكسار والخروج إلى اليمين من اليسار ، وعنوان السعود وحصول النحيح والمقصود ، فإن مسبب الأسباب العزيز الوهاب

---

(١) نهداً على نهد : كريم على كريم .

(٢) الشيخ الرئيس : أبو على بن سينا ، تقدم ترجمته .

تبارك وتعالى وجل جلالا ، هو مسهل الصعاب ومفتح الأبواب ، وإذا أراد أمراً هيأ أسبابه وفتح على الضعيف طاقته وبابه ، ووسع رحابه وسدد إلى مرامى المرام لراميه نشابه[1] ، وحصول مثل هذا الصاحب الصادق والرفيق الموافق والمعين المصادق ؛ أدل دليل على أن الله الجليل ييسر هذا المطلوب ويظهر هذا النجح المحجوب . ثم أنهما استشارا الحمامة فى كيفية نيل الزعامة والشروع فى هذا الأمر ، والتوصل إلى دعوة زيد وعمرو ، وطريقة اشتهاره ، وتعاطى أسباب انتشاره .

فقالت : أنا من جنس الطير مشهورة بينهم بالخير ولهم إلىَّ سكون ، وعلى مناصحتى اعتماد وركون . فالصواب فى فتح هذا الباب دعوة الجمهور من الطيور ، وأنا به زعيم وفى الرسالة حكيم ، فإن اقتضى الرأى الرفيع توجهت ودعوت الجميع بعد التخيير والتشهير بين الكبير منهم والصغير ، أن أبا الجِرَاء السلطان ، وأبا الجِذَاء الوزير ، وقد وقع الاتفاق فى الآفاق على هذا الوفاق ، فليبتهج سائر الطيور بهذا الفرح والسرور ، وليقرأ على رؤس الجمهور هذا المقال المنشور ، وليبادر إلى الخدمة بالحضور ولا يتخلف أحد من آمر ومأمور ، والحذر الحذر من المخالفة وعدم الانقياد والمؤالفة ، فقد طاب الوقت ، وراق وزال المقت ، والشقاق والمسارعة فى أقرب زمان ليأخذوا لأنفسهم الأمان ، ولا يركبوا من التعويق سوى متن مسافة الطريق .

فأعجب الملك والوزير من الهديل هذا الهدير[2] ، فكتب بذلك بطاقة ، وحملتها الحمامة بأحكم وثاقة ، ثم أخذت إلى الجو ، ووقيت من الجوارح السَّوْ ، ثم هبطت إلى مجمع الطير ، وهو نادى الندى والخير ، فرأت منها خلقاً كثيراً ، وجمعاً غزيراً ، فسلمت سلام المشتاق ، وعانقت عناق العشاق ،

---

(١) النبلة تستخدم فى رمى السهام .

(٢) الهدير : صوت الحمام ، والمعنى كلامه .

فترحبوا بمقدمها، وسألوا عن معرب أحوالها ومعجمها ، وقدموا موائد الضيافة ، وأظهر السرور واللطافة ، فبثتهم كثرة الأشواق ، وما عانته من ألم الفراق وقد حرضها شدة الشوق ، وساقها إليهم أشد سوق ، وبعثها أيضاً باعث ، وهو من أحسن الوقائع وأيمن الحوادث، وذلك أن شخصاً من أصلاء بنى سلاق[1] الحاكم على بنى زغار وبنى براق تولى سلطنة السباع ، ومالكية الذئاب والضباع ، مضافاً إلى ذلك الحكم على الطيور والقيام بسياسة أمور الجمهور ، وأقام له فى ذلك وزيراً كافياً ناصحاً مشيراً ؛ يدعى أبا زنمة المشرقى من نسل تكابل الأرتقى وهو من الفحول ، وكباش الوعول ، وقد أرسلونى إلى الجماعة يأمرونهم بالدخول فى رياض الطاعة ؛ ليحصل لهم الرعى والرعاية ، والرفاهية والحماية ، ويأمنوا صيد الكائد وكيد الصائد .

ثم شرعت تبث للكبير والصغير ما شاهدت من مخايل الملك والوزير، وحسن شمائلهما ويمن خصائلهما ، وما هما عليه ونسبا إليه من الشجاعة والدين ، والعقل المتين ، والفضل المبين ، والقناعة والعفة والمجد الذى لا يُدرك وَصفَه ، وأن الملك المعلوم قد عف عن تناول اللحوم ، وقد قنع بما يسد الرمق من حشيش النبات والورق ، وقد تكفل برفع الظلم ، وردع الظالم ، وإجراء مراسم العدل وإحياء مواسم الفضل ، فإن أنابوا وأجابوا ؛ وربحوا وأصابوا وطالوا وطابوا ، وإن أبوا وصبوا واهتزوا للمخالفة وربوا ، ثم كَسَّهم[2] الدمار وَأَرَكَسَهم[3] ، فلا يلوموا إلا أنفسهم .

فصدقوها من أول وهلة والرائد لا يكذب أهله ؛ لأنهم كانوا بها واثقين، ولكلامها فى الحوادث مصدقين ، فما وسعهم إلا الطاعة ، والتوجه إلى خدمة

---

(١) بنو سلاق : الكلاب .

(٢) كسىّ الشىء أى دقه حتى صبره كالسويق .

(٣) أى عكس حالهم .

الملك فى تلك الساعة ، وبعدما تبادر بالتصديق طاروا بالفرح ودخلوا الطريق، واستصحبوا من الخدام والتقادم ما يصلح للمخدوم من الخادم ، فلما قربت الديار ودنوا من ولاية الملك يسار تقدمت الحمامة وسبقت، وأخبرت الملك والوزير بما فتقت ورتقت[1] ، فاستبشروا بما تقدم وبادر الوزير لملاقاة المقدم ، فتلقاهم بالاحترام والتوقير ، وأكرم الكبير منهم والصغير ، ومشى معهم بالإكرام والحرمة ، وأوقف كلا منهم فى مقام الخدمة ، وحين استقر بهم المقام افتتح الوزير الكلام ، فأثنى على الله تعالى وضاعف التحية على نبيه وآله ، ثم امتدح الملك الذكى بثناء يخجل المسك الزكى ، وذكر بعد ذلك ما يتعلق بسياسة الممالك ، وأن الله مَنَّ بالملك عليه ، وساق سلطنة الوحش والطيور إليه ، وذكر مقام كل من الطيور وما وظيفته بين أولئك الجمهور ، فأطاع الكل وتابعوا وعلى ما اقترحه عليهم بايعوا وأنشدوا فأرشدوا :

ونَحْنُ أَتَيْنَا طَائِعِيْن ولم نَكُنْ عُصَاةَ فَرُمْ غيرَ الطيورِ عساكِراً

ولما انقضى الوطر من قضايا الطير ، أخذوا فى استدعاء جموع الغير من الوحوش الكواسر ، والبهائم الجواسر ، والهوام النواشر ، والجوارح النواسر ، وأرسلوا فى تلك الجماعة الحمامة ، وقلدوها فى طوق الزعامة، فتوجهت نحو الوحش ، وإلى كل فارح من الصيد وجحش ، وكانوا بذلك قد سمعوا وللمشاورة فيه قد اجتمعوا ، فبلغت الحمامة الرسالة وأظهرت ما فيها من بسالة ، وكان آخر ما وقع عليه الاتفاق ، الوفاق ، وعدم النفاق وقصد الأرتفاق والتوجه إلى خدمة الملك يسار صحبة الرفاق ، وقالوا : لا شك أن الكلب بالوفاء مشهور ، وبحسن الرعاية والحراسة مذكور ، ويقدر أن يرعانا من الإنسان ، ويحمينا من السباع ومؤذيات الحيوان ، وأوصافه مذكورة فى الكتاب وناهيك بفضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب .

---

(١) أى ما كان منها من كلام .

فتقدم خزز[1] من بين تلك البزز[2] ؛ يدعى رئيس الأرانب محبب إلى الأقارب والأجانب ، وهو مشهور بالحصافة ، موصوف بالذكاء والظرافة ، والمعرفة التامة والتجربة المفيدة العامة ، بعيد الفكرة فى العواقب ، سديد الرأى حازم مراقب .

وقال : يا معشر الأصحاب وأولى الأبصار والألباب ، كيف خفى عليكم ولم يتضح لديكم عاقبة هذه الأمور ، وما فيها من عكوس وشرور ، وهل يصلح للرياسة وإقامة السلطنة والسياسة أهل النذالة والخساسة المتصف بالقذارة والنجاسة ، أو ما علمتم أن من أفحش السباب الشتم بأخس من الكلاب، أو ما سمعتم فى كلام مالك : أزمة القلب فى حق من عامله بالسلخ والسلب فمثله كمثل الكلب . أو ما قال صاحب الشرع فى حق ما ولغ فيه الكلب بالسبع ، ثم التعفير بالتراب ، وهو مذهب كثير من الأصحاب ، وأن لا يطهر بالدباغة منه الإهاب[3] ؛ لا أصلى تقى ، ولا وصف نقى ، ولا نسب طاهر ، ولا حسب ظاهر ، ولا وجه زاهر ، ولا شكل باهر ، فإن كنتم نائمين انتبهوا ، وأعرضوا عما قصدتم إليه وانتهوا ، فلعن الله زماناً صار فيه التيس وزيراً ، والكلب سلطاناً ، ولقد أرشد من أنشد :

لقد جَارَ صَرفُ الدَّهْرِ فى كُل جَانِبٍ مَنَ الأَرْضِ واستَوْلَتْ عَلَيْنَا الأَرَاذلُ
هل المَسْخُ إلا أن ترى العُرْفَ مُنْكراً أو الخَسفِ إلا حين تعلو الأسَافِلُ

فتصدى الهديل للجواب ، وقال : لا شك ولا ارتياب أن المستحق للسلطنة الإمام العادل والشخص الكامل الفاضل ، ولا يقدح فى هذا الفضل دناءة الأصل ، فقد قال القيوم الحى ﴿**تُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتَ وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ**﴾ [آل عمران:٢٧] وكل من اتصف بالهمة العلية ، والأوصاف السنية،

(١) الخزز : ذكر الأرانب .
(٢) الجمع .
(٣) الجلد الذى لم يدبغ .

ومكارم الأخلاق والشيم ، وأنتشر بها صيته بين الأمم ؛ يستحق أن يرأس بين العرب والعجم ، وأما الأنساب ففى نص الكتاب قال : من بقوله يهتدى المهتدون ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ولا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١] .

وقال الشاعر :

كن ابن من شِئْتَ واكْتَسِبْ أدبا ... فَسَوْفَ يُغْنِيك ذا عن النَّسَبِ
إنَّ الفَتَى من يقول ها أنا ذَا ... ليس الفتى من يقول كان أبي

وقال أيضاً :

لِعَمرك ما الإنسان إلا ابن يومِه ... على ما تَجَلّى يومه لا ابن أمسه
وما الفَخْرُ بالعظم الرَّميم وإنما ... فَخَارُ الّذى يبغى الفَخَارَ بنَفْسِهِ

وأما الأوصاف ، فلا شك ولا خلاف فى أن الكلاب فضلت على كثير ممن لبس الثياب وما ذاك إلا لأوصاف اختصتها ، وآثار اقتفتها واقتنصتها ، وهى مشهورة وعن الكلاب مسطورة ، ومن جملة محاسنهم مأثورة ، وأما الأوصاف الذميمة فيمكن صيرورتها مستقيمة ؛ وذلك بحسن التأديب والتربية والتهذيب والتمرين والتشذيب[١] ، حتى يصيرنا به مدية[٢] وهذا ليس فيه مرية ، ويجتزى بالفاكهة والبطيخ عن اللحم السليخ ، وبالخبز الشعير عن أكل لحم الحمير ، وناهيك يا أبا وَثَّاب ما قيل فى الكلاب ولابسى الثياب :

ومَا ضَرَّ أهلُ الكهف إيمانُ كَلبهم ... ولكنهم زَادُوا يَقِيناً عَلَى هُدَي
وَمَاذَا أَفَادَ العلم بَلعَام[٣] وهو من ... بنى آدم لَمّا إلى الأرْضِ أَخْلَدَا

---

(١) أى يبعد ويسقط عنه من الأخلاق الذميمة .
(٢) أى شفرة وسيف يقطع به عن نفسه من ذم من أخلاق .
(٣) اللعم : اللعاب .

وهذا السلطان ؛ قد عاهد الرحمن أن لا يمزق حيوان ، ولا يذوق لحمان ، وأن يقنع بالكفاف[1] ويسلك طريق العفاف ، وماذاك لعجز ينسب إليه، ولا لوهن طرأ عليه ؛ بل سمت همته عن ذلك ترفعاً ، وسلك طريق الملوك فى إحياءهما ومعاليها تطبعاً وبضدها اتبين الأشياء ، فإن أجبتم كان لكم الحظ الأوفر ، وإن امتنعتم فقد أعذر من أنذر ، وبلَّغ من حذر ، وما قصر من بصر ، والعاقل من يتبصر عيوبه ويسلك من الخلق الجميل دروبه، وقد قيل لأمير النحل ذاك الأسد الفحل كرم الله وجهه ، وجعل له إلى الرضوان أحسن وجهه يا أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين ممن تعلمت الأدب ؟

قال : من قليل الأدب ؛ يعنى إذا رأيت فى أحد خلقاً ذميماً أو وصفاً فسداً بادرت إلى افتقاد نفسى ، وتأملت فى حدسى وحسى هل أنا محلى بذلك الوصف أم لا ، فإن لم يكن اجتهدت أن لا يكون ، وإن كان أبعد عنه عرضى وأصون ، وحسبك يا ذا الرتبة العالية استنكاف اللص العاقل من قول تلك الزانية . فقالت الخزز للحمامة : أخبرينى بذلك الإستنكاف يا ذات الكرامة

[٥٤] **قالت الحمامة** : ذكر رواة الأخبار عن شاطر من الشطار ، قد بلغ فى الشطارة واللصوصية غاية المهارة ، يسرق الوهم من الخاطر، والرائحة من الطيب العاطر ؛ والنوم من أجفان الوسنان[2] ، واللماظة[3] من أسنان الجيعان ، ويأتى على كوامن الغيوب فضلاً عن خزائن الجيوب، ويلف الرخيص والغالى والوضيع والعالى ، وقد أعجز المُقَدَّمَ والوالى .

ففى بعض الأوقات قصد جهة من الجهات ، فبينما هو فى المناهضة

---

(١) أقل القليل .

(٢) من اشتد نعاسه .

(٣) ما يبقى فى الفم بعد الأكل .

والمناهزة غشيه الوالى مع العسس والجلاوزة ، ومعهم إمرأة بغى قد خرجت عن الصراط انسوى ؛ وهم يضربونها ، وعلى أفظع حالة يسحبونها، وهى تستصرخ المسلمين وتستغيث أئمة الدين . فلما أحسن اللص بهم نكب عن دربهم وولاهم عِطْفَه ، وانزوى فى عَطْفَه وانتظر حتى يمروا ، فسمع المرأة وهم بها قد أضروا ؛ وهى تصيح بلسان فصيح ، وتقول : يا أهل الإسلام ؛ وأمة خير الأنام ؛ أنجدونى وارحمونى واسعدوني، لا سرقت ولا نقبت ، ولا اختلست ولا سلبت ، ولا طمعت فى مال أحد ولا نهبت ، ولا وقفت لأحد فى درب ، وإنما استنفق من حاصل دار الضرب ، وذلك ملكى وحوزى ، وثمرة لوزى وجوزى ، بإشارة سهام الحاظى المُلَوَّزة ، من قسى حواجب بالجمال مُتَوَّزة[1] ، وسفارة نظام ألفاظى المعززة المشبة باب طريقها درراً فى العقيق والرقيق مغرزة ، فمالى على أحد ثقل ولاطمعت فى مال أحد فيحصل له منى ملل .

فلما سمع قاصد الحرام هذا الكلام ؛ أفاق خاطره وراق وتنبه لقبح صنعته ، وإن الزوانى تأنف من حرفته ، وتستنكف مما هو مفتخر بفضيلته .

فقال : لعن الله فعلاً تنتقصه الخواطى ، وتباً وسحقاً لمتعاطيه من متعاطى . ثم عاهد الله التواب ، ورجع إليه عن صنعة الحرام وتاب .

وإنما أوردت هذه المناقب يا شيخ الأرانب ؛ لتعلم أن العاقل من يتصفح جرائد أعماله ، ويتأمل صحائف حركاته وأحواله ، وأن هذا الملك صفى شراب صفاته من كدورات الهوى براووق[2] المراقبة ، ونقى رياض ذاته من شوك الأخلاق الذميمة بمنكاش المعاتبة بقدر طاقته وإمكانه ، وهو مثابر على ذلك فى غالب أزمانه ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [البقرة:٢٨٦] وليس لك أن تعترض بأن النفس لا تغير طبعها ، وليس

---

(١) خنيظة ثقيلة الشعر .

(٢) أى مصفاه بالملاحظة والمراقبة .

الأكمه كالأرمد[1] ، ولا السطيح[2] كالمقعد ، ولا سبحان كباقل[3] ، ولا العاقل كالمتعاقل ، وليس التكحل في العينين كالكحل ، وتخرج يا مسكين بواقعة السلطان محمود بن سبكتكين[4] مع وزيره حسن الميمندى[5] ؛ بسبب القضية الواقعة لابن الجُنْدِى ، فسأل أبو عكرشة أبا عكرمة عن هذه الواقعة ليتبين من التمثيل بواقعه .

[٥٥] **فقال** : إن السلطان محمود ذا طابع المسعود ، الذى فتح بلاد الهنود ، جرى بينه وبين وزيره مباحثة ، وقع فيها عن دقيق العلوم منابثه ؛ فى أن الطباع هل تقبل التغيير ، أم لا تستحيل عما جبلها عليه الفاطر الخبير.

فقال الوزير : نعم تقبل التغيير بواسطة التأديب وحسن التشذيب، والتهذيب وقد شاهدنا الطباع من الوحوش والسباع ، بواسطة التعليم تركت الخلق الذميم ، واكتسبت الوصف المستقيم ، فجريان هذا الإمكان أحرى أن يوجد فى جنس الإنسان .

فقال السلطان المظفر : لا تتحول الطباع ولا تتغير ، ولا يمكن صرفها عما جبلت عليه ولا يتصور ، قال من ليس فى كلامه اشتباه ﴿**فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾ [الروم:٣٠] .

---

(١) أى ليس الأعمى كالمصاب بالرمد ، وهو مرض عارض .

(٢) البطىء القيام لضعف أو مرض .

(٣) سبحان وائل ؛ خطيب فصيح ضرب به المثل ، وباقل الأيادى ؛ جاهلى ضرب به المثل فى البلاهة .

(٤) محمود بن سبكتكين ؛ لقبه يمين الدولة ، ثالث ملوك الغزنويين ، وأشهرهم ، فتح بخارى وما وراء النهر . شجع الآداب والفنون وفى عهده نبغ الفردوس صاحب الشاهنامة توفى سنة (١٠٣٠هـ) .

(٥) حسن الميمندى ؛ وزير السلطان محمود . أكرم العلماء واستبدل بالفارسية العربية ، توفى (١٠٣٢هـ) .

وقال القائل : وتأبى الطباع على النقال .

واستمر هذا الكلام بينهما عدة أيام ، إلى أن ركب السلطان وقصد السيران والوزير فى ركابه بين خدمه وأصحابه . فرأيا من بعد شاباً من أولاد أحد الجند ، وهو جالس على فرع شجرة يابس يريد قطعه لما عدم نفعه ، وقد جعل ظهره إلى طرف الفرع ، وهو عَمَّال بالمنشار فى أصله للقطع ، فتأمل السلطان والوزير فى هيئة ذلك الظبى الغرير ، ثم قال السلطان للوزير بين الأعيان : وطبع هذا أيضاً داخل فى الإمكان ، وهو يقبل التغيير والتعليم ، ويمكن استحالته بالتأديب والتفيهم ، فلم يحر الوزير جواباً لا خطأ ولا صوابا، ثم أشار إلى بعض خَوَلِهِ[1] ، أن يذهب بذلك الشاب إلى منزله ، فلما نزل من الركوب أحضر ذلك الشاب المرعوب الغافل المحبوب ، ثم طلب له مؤدبا حاذقاً مهذباً وأمره أن يجتهد فى تعليمه ، ويبالغ فى تأديبه وتقويمه ، ويوقفه من العلوم على دقائقها ، ويسلك به إلى خفايا طرقها وطرائقها ، فاشتغل بتربيته ليلاً ونهاراً ، وبذل مجهوده فى ذلك سراً وجهاراً ، إلى أن برع فى أنواع العلوم وضبطها من طريقى المنطوق والمفهوم ، ولما فرغ من العلوم أدناها وأنهاها ، من مبتدئها إلى منتهاها ، شرع به فى علم إدريس[2] وهو علم النجوم النفيس ، واستطرد منه إلى علم الرمل المنير ، وتوصل به إلى أن توصل إلى إخراج الضمير ، فأتقن هذه العلوم ؛ لاسيما إخراج الضمير الموهوم .

فلما أتقن ذلك وسلك فيه أدق المسالك ، أحسن الوزير إليه وأستصحبه إلى الملك ودخل به عليه ، فقبل الأرض وأدى من شرائط الخدمة النافلة والفرض ، وقال للسلطان محمود : إن هذا هو ذاك الشاب المعهود ، وقد برع

---

(١) خدمه .

(٢) إشارة إلى نسبة علم النجوم إلى إدريس عليه السلام ، وهذا مما لا يصح فيه شىء .

فى العلوم ووصل إلى استخراج الضمير المكتوم ، وقد بدلت بلادته بالذكاء وصار فؤاده كابن ذكاء ، فإن اقتضت الآراء السلطانية سَبْرَتَهُ ، واختبرت فيمه بعدما اختبرته ، فأدخل السلطان يده فى كمه ونزع خاتمه من بصمه[١]، وأطبق يده عليه ليسْبرَ منتهى علمه ، وينظر ما قاله الوزير فى كيفية هذا التبديل والتغيير ، ثم أخرج يده من كمه وقال : ليظهر نتائج علمه ، ليخبرنا بما فى كَفِّى وعن حواس العيون مخفى ، فتقدم الشاب ورفع الأصطرلاب[٢] ، ووضع أوضاع الحساب وخط ذلك النقى أشكال لحيان والنقى ، وسائر الأوضاع من الطريق والاجتماع ، ثم نظر وسبر وعبس وبسر وقدر وافتكر ، وقال : دل الشكل والله أعلم أن ما حواه الكف المكرم ، شىء من المعادن محفوف بسودد أو سواد بائن ، وهو فى أفضل الأشكال لأنه مستدير ، وفى أحسن الألوان لأنه مستنير ، وفى دائرته قطر ومركز ، وفى وسطه ثقب لمغرز وهو ثقيل ، إما فى الثمن أو فى التحميل ، ثم تأمل بعد الوقوف فى أن هذا الموصوف ماذا يكون ، فقال : كان والله أعلم فردة طاحون[٣] ، فضحك السلطان الكبير وخجل لذلك الوزير ، ثم قال السلطان : أبى الله ، وله السبحان ، أن يكون باقل كسحبان :

إذا كَانَ الطيَاعُ طيَاعَ سوء ... فليس بنافع أدَبُ الأديبِ

وإنما أوردت هذه المسائل ؛ لئلا يعترض قائل ، ويستدل بمثل هذا الدليل على أن الطباع لا تقبل التغيير والتحويل ؛ بل الطباع تتغير ومن ذا الذى يا عزلا يتغير ، فسبحان من لا يحول ولا يزول ؛ الذى وضع عالم الكون على الانتقال والحلول ، وكلّ لجلال عظمته مُخْبِت[٤] ، يمحق ما أراد

---

(١) إصبعه .

(٢) آلة ، تستخدم فى حساب النجوم والفلك .

(٣) حجر مستدير من حجرى الطحون .

(٤) منكسر ذليل خاشع .

ويثبت ، ويمحو ما يشاء ويثبت ، ومذهب أهل الثبات فى المحو والإثبات : أن الكافر قبل الإسلام كافر عند الملك العلام ، وبعد ما انخرط فى سلك المؤمنين صار مؤمناً عند رب العالمين ، وعلى هذا التقدير والتقرير أيها الفاضل الكبير والعالم النحرير[1] ، فالملك يسار نظر بعين الاعتبار ، وتتصل من رذائل الأوصاف ، وتخلق بأخلاق الأشراف من التلبس بالعدل والإنصاف ، ولولا نيته الصالحة ما صارت صفقته فى المبايعة رابحة ، ولا كانت كفة فضله راجحة ، ولا زايله النكد ولا أطاعه أحد ، والأعمال بالنيات وعلى مقدار النيات العطيات ، وجنس هذا الملك فى الأوصاف المتباينة مشترك ، فإنه قد جمع بين خصائص الحيوان حتى كأنه سبع بهيمة إنسان كما قيل :

جمع الكلبُ فى حَلاَه صِفَاتٍ ... فَهْو سَبْعٌ بهيمةٌ إنسانُ

وكما قيل أيضاً :

يكاد إذا ما أبصرَ الصيفَ مُقْبِلاً ... يكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ

وأنا يا مولاى أعرض عليكم هذا الرأى ، وهو شاهد عدل وحكيم فصل، وهو أن يقع الاتفاق على واحد منكم من خلص الرفاق ، مَنْ تحققتم حسن آرائه وصدقه فى أنبائه وصحة دينه ورصانة عقله ويقينه ، فانطلق فى ركابه إلى حضرة الملك وجنابه ، فيكتحل بأنوار طلعته ، ويشمله ميامن رؤيته ويطالع جميل صفاته ليسكن إلى فضيل حركاته ، وينتقل من عليم اليقين إلى عين اليقين ، فيزول باليقين الشك ويظهر خلاصة الذهب بالحك ، ثم يأخذ لكم العهد والميثاق بما يقع عليه الاتفاق ، وما ترضونه وترونه من الصواب ، ويرد عليكم بذلك الجواب ، فإن وافق قصدكم توكلون عليه عهدكم، وتتوجهون بقلوب مطمئنه وخواطر فى حصول المرام مستكنة ، وإلا فترون رأيكم فيما عليكم ومالكم .

(١) الماهر العالم .

فاستصوبوا هذا الرأى واسترضوه ، واستعذبوا لطيف معناه واستحسنوه وانتدبوا لهذا الأمر الخطير من يصلح أن يكون عند الملوك السفير ، فوجد طبياً طيب العناصر قد عقدت على غزارة فضله الخناصر[1] من أعقل الجماعة وأذكاها وأحسنها رأياً وأدهاها ، فقلدوه الزعامة وأرسلوه مع الحمامة، على أن يجتمع بالملك يسار ويعاهده على ما يقع عليه الاختيار ، ثم يسمع أقواله ويشاهد أفعاله ويميز أحواله ، ثم يرد عليهم الجواب فيميزوا ما فيه من خطأ وصواب ، فيبنوا عليه ويرجعوا إليه .

فتوجه الظبى والحمامة مستصحبين الأمن والسلامة ، فلما قربت الديار سبقت الحمامة إلى خدمة الملك يسار ، وأخبرته بصورة الأخبار ، وأن الظبى فى العِقَبْ مقبل بما يحبه الملك ويجب ، فأمر الملك الوزير أن يتلقى الظبى الغرير مع جمع الطير الكثير . فتقدم الوزير وقال : أسأل مولانا الملك المفضال إن صدر من هذا القاصد خطاب أن يشار إلىَّ برد الجواب ، فإن ذلك أعلى للحرمة وأدنى للحشمة ، وأقوى لناموس الملك والرياسة ، وأزهى لطاوس البسوق والسياسة ، فإن كان ذلك الجواب متحلياً جيده بعقود الصواب، كانت سعادة الملك الملهمة فى خدم الملك من تصدى للأمر وأبرمه ، فإن خرج عن طريق الجادة ، فلا ينسب إلى الملك تلك المادة ، بل يتلقاه الملك بكرمه ، ويكون الخطأ منسوباً إلى خدمه فأجابه إلى ما سأل ، وتقدم الوزير للملاقاة مع سائر الخول ، فتلقوا الظبى بالترحاب ، وفتحوا فى وجهه للكرامة أوسع باب ، ومشوا معه حتى وصل إلى حضرة ، وشاهد تلك الحشمة والنضرة ، فقبل الأرض ووقف وعرف مقدار الملك واعترف ، وأدى الرسالة وبين للملك ما فيها من رقة وجلالة .

فقابله الملك بما يليق بحشمته وأجلسه بالقرب من حضرته ، وخاطبه بما أذهب دهشته ، وآنسه بملاطفات جَلَتْ وحشته ، وسأله عمن خلف وراءه واستقصى فى التفحص أحواله وأنباءه ، فبلغ عبوديتهم وطاعتهم ، وأن

(١) الخناصر ؛ مفردها خنصر : وهو الأصبع الصغير فى الكف ، وهو مثل يضرب لما يتفق عليه .

الإخلاص والطاعة شملت جماعتهم ، وفتح فم الدعاء بلسان ذلق[1] وخطاب طلق ، وكلام غير معقد ولا قلق ، وأطال فى الدعاء وأطنب[2] فى الشكر والثناء، وسأل شمول المراحم وكَفَّ كَفَّ المتعدى والمزاحم ، فإنهم انبسطوا وانشرحوا وابتهجوا باستيلاء هذا الملك وفرحوا ، وشكروا الله هذه النعمة ، وأنى يفون بشروط العبودية والخدمة، ثم سأل أخذ الميثاق وتأكيد العهد بالإيثاق ، بالأمان والاطمئنان ، لمن وراءه من الوحوش والغزلان ، فأعطاهم الأمان وشملهم بالإحسان ، على أن لا يراق لهم دم ، ولا يهتك لهم حَرَم ، وأنهم يرعون حيث شاؤا ويسرحون حيث ذهبوا وجاؤا ، وأن الملك يسار حاكم سلوق ، وزغار ، خليفة براق ، وكوباك والتتار ، قد عاهد الملك الجبار أن لا يتعرض لوحش القفار ، ولا لأحد من أجناس الأطيار حتى ولا لحيتان البحار ، ولا يريق لهم دماً ، ولا يقصد لهم أذى ولا ألماً ، ويرعى جانبهم ويقضى مآربهم ، ويحفظ شاهدهم وغائبهم، ويمنعهم من مناوءهم ، ولايسلط عليهم من يؤذيهم ماداموا تحت طاعتى وفى جوارى وذمتى ، فقبلت الغزالة بشفاه العبودية خد الجدالة .

وقالت : هذا كان المأمول وجل القصد من الصدقات والمسئول ، والذى جيء لأجله فقد حصل من صدقات الملك وفضله ، ولكن العلم العالى محيط بأن وحوش البسيط أقوام ضعاف ليس بينهم ائتلاف ، وهم طوائف كثير الاختلاف ، أجناس متفرقة وأنواع متمزقة ، ليسوا كقطائع الغنم مجتمعين ولا كحِشَار الخيل ممتنعين ، ولا بعضهم لبعض متبعين ، ثم لم تزل العداوة بينهم قائمة ، وعيون الصلح والاتفاق عنهم نائمة ، لا يضبطهم ديوان ولا يحصرهم حسبان ، ولا يمنعهم من التعدى سلطان ؛ القوى يكسر الضعيف ويمزقه ، والشاكى يستطيل على الأعزل ويغرقه ، ولأجل هذا المعنى لا يمكن اجتماعهم فى مَغْنَى[3] بل البعض فى قلل الجبال[4] متوطن ، والبعض فى

---

(١) فصيح .
(٢) أى أطال حتى وفاه حقه .
(٣) المغنى ؛ جمعها مغان : المنزل .
(٤) مرتفعات الجبال .

سرب التلال متحصن ، والبعض متشبث بذيل الكهوف والمغارات ، والبعض فى الآجام والآكام خوف الغارات ، وكل يخاف حلول البلاء قد اتخذ لذلك القاصعاء والنافقاء[1] ، واستعد بفنون الكيد خوفاً من جوارح الصيد ، وإذا كان الأمر كذلك فاجتماعنا متعسر ، وحفظنا فى الملك غير متيسر ؛ فلابد من ترتيب قاعدة تعم منها جميع الوحوش الفائدة ، ويشمل أمنها غائب الملك وشاهده ، وإلا فالحاضر آمن ، وقلب الغائب غير مطمئن ولا ساكن ، فليفتكر للرعية فى ضابطه تكون الحرمة فيها للقريب والنائى باسطه ، فالتفت الملك للوزير وقال : أجب هذا السفير .

فقال الزنيم : يا أحسن ريم ، هذه الأفكار من قصور الأنظار وعدم التأمل والاستبصار ، وإلا فإن السلطان فى كل مكان كلمته خليا ، ووجوده كالشمس فى الدنيا ، فكما أن الشمس إذا استوت ، وعلى سرير كبد السماء احتوت عم فيض شعاعها الجبال والآكام والتلال والآجام ، وانتشر على البحر واشتهر على الفاجر والبَرّ . فربت الأزهار والأثمار وشبت مشاعل الكلأ فى القفار ، وطبخت الغلال وفواكه الأشجار ، وصبغت فى كوامن المعادن جواهر الأحجار كما قيل :

كالشمس فى كبد السماء محلها وشعاعها فى سائر الآفاق

كذلك الملك العظيم ، إذا انتشر صيت عظمته وعدله فى سائر الأقاليم ، شمل فضله الشريف والوضيع ، وبلغ جود جوده الدنى والرفيع ، وردع عدله الطائع والعاصى ، ووسع نواله الدانى والقاصى ، وأنه كالغمام الصيِّب على الربيع الخصيب ، والدِّيمة المطبقة[2] ، والمزنة المغدقة[3] إذا انتشرت فى

---

(١) حجر اليربوع .

(٢) السماء الممطرة .

(٣) السحابة المحملة بالماء .

الآفاق وصارت لام عهد عاهدها للاستغراق ، فروت الحضيض والبقاع وعمت الوهاد والتلال والبقاع ، وخاطبها ظمأن الرياض وعطشان الغياض :

أَمْطِرْ عَلَيَّ سحابُ جودِك مرة   وانظر إِلىَّ برحمة لا أغْـرقُ

هذا ومتى انتشر فى الأطراف أنكم التجأتم إلى هذه الأكناف ، وتطرز بشمول الصدقات السلطانية من ملابس طاعتكم الطراف والأطراف ، منعت العواطف الملوكية ، والخواطر الشريفة السلطانية عوادى المُعادى ، وكفت أكف المصادم والمُصادى ، فلا يجترئ أحد على التعرض لكم ولا يخطر ببال مخالف أن يقطع سبلكم .

قال الرسول : الأمر كما يقول مولانا الأمير وما أحسن هذا التقرير، ولكن مع المراحم السنطانية وصدقات العواطف الملوكية ، وحسن الطوية وإحسان النية ، فلابد للسياسة وضبط الرياسة ، وقواعد الملك فى الحراسة من ضابط يبنى عليه الملك لأمره أساسه ، لا يتميز به كبير دون صغير ، ولا يختص برعايته جليل غير حقير ، فإن من أحسن أوصاف الملوك والأكابر أن لا يَغفَلوا عن تفقد أحوال الصعاليك والأصاغر ، ولا يقتصروا فى ذلك على نوع دون جنس ، كما يفعله لغلبة الهوى بعض حكام الإنس ، مع أنهم مسئولون عن جليلها وحقيرها ، ومحاسبون على كبيرها وصغيرها ، وفى شأنهم قد قال من فى ضبط حركاتهم وملكاتهم استقصاها ﴿**وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرى المُجْرِمِين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مالِ هَذَا الكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا**﴾ [الكهف:٤٩] وقد تنبه لهذا الفعل الرجيح أيها الوزير النصيح والمنطق الفصيح أنوشروان وهو من الكفار ، واشتهر عنه قضية الحمار ، فسأل الوزير بيان هذا التقرير .

[٥٦] **فقال الريم** : بلغنا أيها الكريم أن أنوشروان بالغ فى نشر العدل والإحسان ، ومعاملة الرعية كبيراً وصغيراً بالسوية ، وبَذَلَ فى ذلك جهده واستنهض لمساعدته وكده وكدد[١] ، واختشى أن يمنع المتظلم الفقير الأبواب بسبب حاجب أو كبير لغرض أو عرض ، أو ارتشاء من فى قلبه مرض . فيمشى مدلس البراطيل[٢] من خوف الأباطيل ، ويضيع بحث صارخ الحق فى أوقات التعطيل ، فأداه قائد اجتهاده وانتهى به رائد مراده ، إلى أن يعقد فى طاق مبيته ، ومجتمع خاطره عن تشتيته ، من محاذى السرير حبل من الحرير ، ويربط طرفه الأدنى فى حلقة الباب حيث لا حاجب ولا بواب ، وهو مكان مجتمع الجمهور ، ولا يمنع أحد فيه من الوقوف والمرور ، وأن يشد فيه أجراس من خالص الذهب لا النحاس ؛ بحيث إنه إذا حرك الحبل صوتت الأجراس صوتاً أخرس الطبل ، ثم أمر منادياً أن يرفع صوتاً عالياً : بأن من كان شاكياً فعليه بتحريك ذلك الحبل ليقع الظالم فى الكبل[٣] أو ينتصر المظلوم من بعد ومن قبل . فاشتهرت هذه العادة ، ونال بها فى الدنيا السعادة، وعظم صيته ، وخمدت عفاريته ، وانتصفت صفاريته[٤] ، ففى الظهائر عند قائلة الهواجر[٥] وأنوشروان فى مبيته قد طاب اضطربت الحبل والأجراس أشد اضطراب ، ففر أنوشروان مذعوراً وتصور المحرّك مظلوماً مقهوراً ، فابتدر بطلبه لينظرفى ظلمه وسببه فتبادروا إلى إحضاره واستكشاف أخباره ، وإذا هو حمار جَرِب جَنَب ، جسمه من الجرب خرب ، ومتن ظهره من الحكة نقب ، وقد هد عمارة عمره هادم الهرم ، وألهب حشيش حشاشته من

---

(١) وكده وكده : قصد قصده .

(٢) صاحب الرشوة .

(٣) القيد .

(٤) الصفاريت ، مفردها الصفريت والفقير .

(٥) الهواجر ، مفردها الهاجر : نصف النهار فى القيظ أو من عند زوال الشمس إلى العصر ؛ لأن الناس يستكنون فى بيوتهم كأنهم قد تهاجروا .

الجوع ماضى الضرم ، يحمله له صاحبه ما لا يطيقه ؛ ويقطع عنه قوته وعليقه ، يؤذيه ولا يداويه ويدور به ولا يداريه ، فطلب مالكه وعَتَبَه ، ثم زجره وضربه ، ثم أمر بالنداء فى الأسواق وامتد ذلك حتى بلغ الآفاق وعم الضواحى والرزداق[1] : أن يسلك بما ملكت اليمين الإرفاق ، ولا يقطر عليها فى الإنفاق ، وكل من عنده دابة قد استعملها فى صباها واستوفى فى خدمته قواها يراعى حقوقها إذا كبرت ، ولا يضيع ما قدمت بما أخرت ، وصك وجه ذلك الرجل صكاً ، وكتب عليه بفرض حماره صكاً .

وإنما ذكرت هذا المثال ؛ فى معرض ما يقال من : أن عدل السلطان خير من خصب الزمان ، وأيضاً فإن قصد الملك إذا كان صالحاً كان أمره فى جميع الأزمان ناجحاً ، وسخر الله له من يرشده إلى قصده، ويعينه على أمور شعائره ، ويحى ذكره من بعده ، وتَدُرُّ على يده سحائب البركات ويجرى منها على خير قصده أبحر الخيرات ، وحفظ كل من إليه ينتسب ، ورزقه كل ذلك من حيث لا يحتسب ، وحاصل هذه المقدمة أن المسئول من الصدقات المعظمة ؛ أنه إذا ترامى على أبواب عدلها شاكى أو تعلق بأسباب مَعْدَلَتِها متظلم باكى ، تتصدى هى بنفسها لكشف ظلامته ، ولا تترك الغير فى فصلها لإقامته ، وأن الفقير من جماعتنا ، والضعيف من أهل طاعتنا إذا مست الحاجة به إلى بث شكوى أو رفع بلوى ، يتقدم إلى شكواه بلا واسطة ليأمن فى أمره المغالطة ، ويصادف مُقْسِطه لا قاسطه[2] ويتساوى فى كل من مشرب العدل والإنصاف ومراعى الفضل والألطاف ؛ الظباء ، والأسود ، والذئب والعتود[3] ، والعقاب ، والعصفور ، والحمام ، والصقور ، ولا يتقدم فى الدعاوى من حيث التساوى ؛ الوجيه على الجاهل ولا النبيه على الخامل، ولا الكبير على الصغير ولا الجليل على الحقير .

---

(١) القرى وما يحيط بها .

(٢) أى من يعدل لا من يظلم .

(٣) الخيل .

فإن اقتضت الآراء العالية تولية عامل فى ناحية ، فليكن ممن له شفقة تامة ورحمة فى أمر الرعية عامة ، ويعرف ذلك بمن جربته العلوم الكريمة وتحققت أن نيته فى رعاية الرعية مستقيمة ، قد صارت له الشفقة مَلَكَة وكل من العدل والإنصاف قد ملكه ، ولا تولى أحد الغرض ؛ أو من فى قلبه من أذى المساكين مرض ، وإن الطبيعة إذا اعتادت عادة والمُسْجِيَة[1] إذا جعلت لها بعض الأوصاف قلادة ، سواء كان ذلك مذموماً أو محموداً مقبولاً عند العقل والشرع أو مردوداً ، فإنها تبرزه فى غالب الأوقات ، ولا تتخلف عن ملابسته فى أكثر الحالات :

العين تَعْرِف من عينى محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها

وكل قضية لا يساعدها القلب فمنتهاها على العكس والقلب ونظيرها يا رئيس المدارة ؛ قضية من زوجته أمه وهو كاره فسأل الوزير من السفير تقرير هذا النظير .

[٥٧] **فقال** : كان شاب من العُراب ، قصدت أمه تأهله فزوجته بإمرأة أرملة ، ولم يكن له احتياج ولا رغبة فى الزواج ، واختار التخلى للصلاة على مذهب الإمام الشافعى رحمه الله ، ولكن فَرَّ من العقوق ، وكتب على نفسه الحقوق ، فلما عُقِدت الوليمة وصممت العزيمة وجمعت النساء والرجال أرسلت أمه إلى جار لهم قوال أستاذ فى صنعته ماهر فى حرفته ، فدعته إلى الجمع ليبتهج بحسن غنائه السمع ، فيشغل الوقت ويذهب المقت ، ويحصل للحُضور النشاط والسرور فتخلف وأبى وعن الحضور نبا ، فسئل عن تصلفه[2] وسبب تخلفه .

---

(١) الفطرة .

(٢) امتناعه مع عدم اكتراث لمن حضر .

فقال : بلغنى أن الزوج الخاطب غير طالب ولا راغب ، وإذا كان كذلك فلا يُغْنى الغناء إلا العناء ، ولا يؤثر فى القلوب والأسماع ؛ بل تنفر عند سماعه الطباع فكل شيء لا يصدر عن رغبة القلب ، فإن إيجابه لا يفيد إلا السَّبُّ ، فيضحك علىَّ القائم والقاعد ، ويسخر منى الصادر والوارد، ويروح تغزلى فى البارد .

وإنما ذكرت ذلك ؛ لأعرض على أراء المالك أنه إذا أولج أمر الرعية إلى أحد من الخاصكية[1] ينظر إلى شفقته ، ويسبر وفور مرحمته ، ثم يوليه عليهم ويتقدم بالطاعة إليهم ، فيستقيم إذ ذاك فعلهم وفعله ، ويظهر فى حركاته وسكناته عدله ، وليس "عدل فى القضايا تساويها ولا إجراؤها على نسق واحد يحويها ، بل معرفة مقاديرها وبيان تقريرها فى المبادىء وتحريرها ، ثم إجراؤها على مقتضى مدلولها ، ورد فروع كل مسألة إلى أصولها ، ووضع الأشياء فى محلها وإيصال الحقوق إلى أهلها ، ومعرفة منازل أربابها وأوضاع أصحابها ومراتب طلابها ، فمن لم يحقق هذه الأمور أضاع مصالح الجمهور ، فأعطى غير المحق ما لا يستحق ومنع الحق عن المستحق ، وقد قيل يا أبا السعود : إن حقيقة الجود إعطاء ما ينبغى لمن ينبغى ، وإلا كان كالباذر[2] فى السباخ[3] وأشبه فى أمره أجير الطباخ الذى لم يعرف معنى العدل فقصده فوقع فى الجدل ، فسأل الغزال شيخ الأوعال عن هذا المثال .

[٥٨] **فقال** : كان عند بعض الأشياخ من الطباخين أجير طباخ ، له رغبة منهمة على معرفة طبخ الأطعمة ، وكيفية ترتيبها وصنعة تركيبها ،

---

(١) خاصة الملك والسلطان .

(٢) من يبذر الأرض ، الفلاح .

(٣) الأرض البوار .

وكان مغرماً بذلك يسلك فيه كل المسالك ، ويَرِدُ فيه الموارد ويتبع كل صادر ووارد ، ففى بعض الآناء وقف على طبيب من الأطباء ، فسمعه يقول: إن أصلاً من الأصول العدل والتسوية بين الأطعمة والأغذية ، والعقاقير والأدوية، فمن لم يستعمل الاستواء فى درجات الغذاء والداو ؛ ضل عمله وغوى ، وأصل هذا المزاج ؛ ولا ينكره إلا ذو لجاج فإن العناصر الأربعة منها المضرة والمنفعة ، وقد تولد منها السوداء والبلغم والصفراء والدم[1] ، فمتى اعتدلت هذه المتولدات ؛ صحت الأبدان واللذات ، ومتى عن الاعتدال عدلت أمرضت وقتلت .

وكذلك النيِّر[2] الأعظم والكوكب المضىء فى العالم ، إذا حل فى مركز الاعتدال استقام للعالم الحال ، وطاب الزمان واعتدل ، وذلك عند نزوله فى برج الحمل ، فتصور ذلك الولهان أن المقصود التسوية فى الأوزان، فانصرف وهو فرحان وقصد طعام الزبرباج[3] وعبَّى من مفرداته ما يحتاج ، ثم إنه ساوى بين أوزانها وقصد العدل فى ميزانها ، وخلط كعقله أخلاطها، ووضعها فى قدر وساطها ، فخاب عمله فى عدله وبان نقصه فى فضله .

فلما رعى الملك والوزير ما سلكه السفير فى نظام هذا التقرير شكرا له مساعيه ، وأخصبا فى الإكرام والإعزاز مراعيه ، وقالا : جزاك الله خيراً عن شفقتك ، وحسن صنيعك لمرسليك ورفقتك ، فمثلك من يصلح للسفارة بين الملوك ، وتولى أمور الرعية من الغنى والصعلوك ، فإنك ناصح لمن فوقك شفيق على من دونك .

---

(١) السوداء ، والبلغم ، والصفراء ، والدم : الأخلاط الأربعة داخل جسم الإنسان ، فى عرف الأقدمين .

(٢) الكوكب المضىء .

(٣) الجيد الجميل من كل شىء .

ثم قال الوزير : إن هذا الملك الكبير مقاصده العظيمة أن تكون الأمور مستقيمة ، وأن يصلح العباد والبلاد ، ويطمئن المستفيد والمستفاد ، فاحتفظ أيها السفير المنير الضمير بما سمعت ورأيت وشاهدت ووعيت ، وأجعله من عنوان أنبائك ومقدمات أفعالك وآرائك ، وأبلغه من يَحِفُّك[1] من أمامك وورائك ، ومهما وصلت إليه قدرتك وأحاطت به يدك وكلمتك ، من إبلاغ الخير إلى مسامع الوحش والطير عن هذا الملك وأوصافه ، وتطلعه إلى مراقى السِّيَر والإحسان واستشرافه ، وما تسكن به الخواطر وتطمئن به الضمائر ، وتقر به العيون بالسرور وتستقر به القلوب فى الصدور ، فلا تألُ فيه جهداً ، وأوسع فيه جداً ، ولا تنه فى إنهائه حدا فإن المجال ؛ واسع وميدان المقال شاسع ، وقد أذن لك فيه وإن أخفيته فى نفسك فالله مبديه .

ثم كتب له بذلك مراسيم عن ثغر الأمانى مباسيم ، وأفيض عليه خلع الكرامة وأضيف إليه الحمامة ، ورجع إلى أهله مغمور بفضله مسروراً بقوله مشكوراً بفعله ، فائزاً بالمطلوب ظافراً بكل مرغوب ، فارغ البال طيب الحال، فاتصل بأهل ديار ه وهم فى انتظاره ، فبادروه بالسلام وقابلوه بالاستلام، وقالوا : ما وراءك يا عصام ، فبلغ الجواب بأرشق عبارة وأليق خطاب ، وذكر لهم ما رأى وسمع ووعى ، فانتشرت هذه الأخبار حتى ملأت الأقطار ، وتسامع بها وحوش القفار ، وفاح بطيب نشرها الأزهار ، فكان جميع البَرّ معطار .

ثم اجتمع رؤساء الوحوش والبهائم ، وعرفاء الصوادح والبواغم[2] ، وكل ساكن فى القفار من سائم وحائم ، وأرسل كل إلى أمته رسوله يدعوها إلى ما يحصل سولها وسوله[3] ، فلبت كل أمة دعوة رسولها ، وأقبلت

---

(١) أى من أحاطوا بك واهتموا .

(٢) البواغم ، مفردها الباغمة : الظبية .

(٣) أى سُؤلها وسُؤله .

لاستماع المراسيم وقبولها ، فاجتمعوا فى رياض مرج أخضر ، وحلّقوا لاستماع المراسيم حول المنبر ، وأطرقوا وسكتوا واستمعوا وأنصتوا ، وتناول المرسوم الصادح من الباغم ، وصعد على الغصن الناعم مطوق الحمائم، وابتداء باسم الكريم الغفور ، وقرأ على رؤوس الأشهاد مضمون المنشور ، ودعاهم إلى الطاعة والدخول فى سنن السنة والجماعة ، وأنهم لا يتأخرون عن الحضور بعد الا لـلاع على مضمون المنشور ، فإنه فرمان أمان لكل من أجناس الحيوان ، ولم يبق مقالا لمتخلف ، ولا مجالا لمتأخر ومُسَوِّف كما قيل :

فَمَنْ جَاءَنا طَوْعاً أَقَمنا بِمَجْدِه   ومَنْ يَأْبَ لا يَعْتَبْ عَلَيْنا فِعَالَنَا

إلى آخر الرسالة مع ما تحمله الرسول من مشافهة ومقالة ، ومن ملاطفات تشرح الصدر وتستنزل البدر ، وتوضح ما للملك من جلالة وقدر ، فتلقى الكل هذا الكلام بآذان القبول والإكرام ، واتفقوا على التأهب والمسير والاحتفال بالكبير والصغير ، وأخذوا فى تعبية التقادُم والخدم ، وفرضوا ذلك على ما لكل من طوائف وحشم ، وتصدعوا عن هذا المرسوم على أن يجتمعوا فى يوم معلوم ، ثم أعد كلّ عتاده ، وأكمل خدمتّه وزاده ، واجتمعوا لذلك اليوم الموعود وتوجهوا إلى الخدمة فى الطالع المسعود .

ولما دخلوا الدرب وضربوا فى الأرض أيمن ضرب ، توجهت الحمامة بالبطاقة بهذه البشارة والطلاقة ، فانتشر هذا الخبر وملأ البدو والحضر ، فلما وصل الطائر دقت البشائر وسُرَّتْ الأهل والعشائر ، ثم إن الملك دعا الوزير وقال : اعلم أيها الناصح الخبير والبحر النحرير ، أن الوحوش واصلة إلى منزلك ، وبخفها وحافرها نازلة فى ساحلك ، وإن راية سلطاننا بعون الله بالنصر نشرت ، ووحوش الجنود والعساكر بحمد الله تعالى على بساط بسيط الطاعة حُشِرَت ، وفى هذه الجيوش أصناف الوحوش ، وطوائف السباع،

وأنواع الذئاب والضباع ، وفيهم الفراعل[1] والثعالب ، والعسابر[2] والأرانب، ولا شك أن هيبة الملك صادعة ، وحرمة السلطنة باسطة فارعة ، وحضرة السلطان ذات جلال وإن كانت جامعة لصفتى الجلال والكمال ، وما عند كل أحد مسكة للملاقاة ولإثبات جنان عند المشاهدة للملك إذا رآه ، فمن لم يكن بيننا وبينه اجتماع فقد وقرت هيبتنا فى قلبه على السماع ، ومن تصدينا له فى ميادين الصيد وأفلت بعد معاناة الكدر والكيد قد رأيته على العيان ، ولا يحتاج فى معرفة قوة سلطاننا إلى ترجمان ، وعلى كل تقدير فمشاهدتنا على غالبهم أمر عسير ، لأنه ربما يتذكر متوهم متذكر أو يتفكر منهم متفكر ، واقعة أو سابقة وقعت انجرح فيها من نصل أنيابنا مفاصل عراقيبه ، أو تعلق بها من أشعاره وأوباره مشاطة جلابيبه ، ومن لم ينجه منا ضباحه[3] ، ولم يكن سلاحه من كلاليب مخاليبنا إلا سلاحه ، فبمجرد ما يقع نظره علينا ، أو تمثل بالوقوف لدينا ، يرجف فؤاده وينفض من عيبة كرشه زاده ، فينكص من الخوف على عقبيه ولا يعرف أمره من حواليه ، فيتبعونه ويحصل الفشل ويقع الخباط والخلل، فيبهم ما أوضحناه ويفسد أضعاف ما أصلحناه ، وينهدم من أول الأمر إلى آخره ما بنيناه ، ويتعوج من مستقيم السلطنة ما سويناه ، فلا يحصل من عزة المملكة إلى على مثل ما حصل لأبى الحصين من شيخ الدبكة . فقال الوزير : ينعم مولانا الأجل بتقرير هذا المثل

[٥٩] **قال الملك** : سمعت مخبراً أنه كان فى بعض القرى للرئيس ديك حسن الخلق وديك[4] ، مرت به التجارب وقرأ تواريخ المشارق والمغارب ، ومضى عليه من العمر سنون ، وأطلع من حوادث الزمان على فنون ،

(١) الفراعل ، مفردها الفرعل : الضبع .

(٢) العسابر ، مفردها العسبر : النمر .

(٣) صراخه .

(٤) سمين .

وقاسى حلوه ومره وعانى حَرّه وقُرّه ، وقطع للثعالب شباك مصايد وتخلص لابن آوى من ورطات مكايد ، ورأى من الزمان وبنيه نوائب وشدائد ، وحفظ وقائع لبنات آوى وثعالب ، وطالع من كتب حيلها طلائع كتائب وأحكم من طرائقها عجائب وغرائب ، فاتفق له فى بعض الأحيان أنه وقف على بعض الجدران ، فنظر فى عطفيه وتأمل فى نقش برديه فرأى خيال تاجه العقيقى ، ونظر إلى خده الشقيقى[(١)] ، ونفض برائله[(٢)] ، المنفش ، وسراويله المنقش ، والثوب الذى رقمه نقاش القدرة من المقطع والمبرقش فأعجبته نفسه ، وأذن فاطرية حسه وتذكر ما قاله الأسعد المادح فى المعتصم بن صمادح[(٣)] وهو :

كَأن أنوشروان أَعْطَاهُ تَاجَه وناطت عليه كف مارية القُرْطَا
سَبىَ حُلّةَ الطاوس حُسْنَ ياسَه ولم يَكْفِه حَتّى سَبَى المِشْيَةَ البَطَّا

فصار يتيه ويتبختر ويتقصف ويتخطر ، فاستهواه التمشى سويعة[(٤)] ، حتى أبعد عن الضيعة ، فصعد إلى جدار وكان قد انتصف النهار فرفع صوته بالأذان فأنسى صوته الكنانى والدهان ، فسمعه ثعلب فقال : مطلب ، وسارع من وكره وحمل شبكة مكره ، وتوجه إليه فرآه فسلم عليه ، فلما أحس به أبو اليقظان طفر إلى أعلى الجدران ، ثم حياه تحية مشتاق وترامى لديه ترامى العشاق .

وقال أنعش الله بدنك وروحك ، وروى من كاسات الحياة غبوقك

---

(١) نسبة إلى شقائق النعمان ذات اللون الأحمر .

(٢) ما حول عنق الطائر من الريش .

(٣) المعتصم بن صمادح :السلطان ، أبو يحيى التجيبى الأندلسى ، محمد بن معن كان حليماً جواداً ، ممدحاً وكان فيه خير ودين وتواضع وعقل تام ، مات فى ربيع الآخر سنة (٤٨٤هـ) سير أعلام النبلاء (٤٤٢٥) .

(٤) تصغير لساحة .

وصبوحك ، فإنك أحييت الأرواح والأبدان ؛ بطيب النغم والصياح فى الآذان، فإن لى زماناً لم أسمع بمثل هذا الصوت ، وقاك الله نوائب الفوت ومصائب الموت ، وقد جئت لأسلم عليك وأذكرك ما أسدى من النعم إليك ، وأبشرك ببشارة وهى أربح تجارة وأنجح من الولاية والإمارة ، لم يتفق مثلها فى سالف الدهر ولا يقع نظيرها إلى آخر العصر ، وهى أن السلطان أيد الله بدولته أركان الإيمان ، أمر منادياً فنادى بالأمان والاطمئنان ، وإجراء مياه العدل والإحسان ، من حدائق الصحبة والصداقة فى كل بستان ، وأن تشمل العداقة كل حيوان من الطير والوحش والحيتان ، ولا يقتصر فيها على جنس الإنسان ، فيشارك فيها الوحوش والسباع، والبهائم والضباع ، والأروى[1] والنعام ، والصقر والحمام ، والضَّبُّ والنون[2] وأبو قلمون ، ويتعاملون بالعدل والإنصاف والإسعاف دون ، ولا يجرى بينهم إلا المصادقة وحسن المعاشرة والمرافقة ؛ فتمحى من لوح صدورهم نقوش العداوة والمنافقة فيطير القطا مع العُقاب ، ويبيت العصفور مع الغراب ، ويرعى الذئب مع الأرنب ، ويتآخى الديك والثعلب ، وفى الجملة : لا يتعدى أحد على أحد فتأمن الفارة من الهرة ، والخروف من الأسد ، وإذا كان الأمر كذا فقد ارتفع الشر والأذى، فلابد أن يمتثل هذا المرسوم ، ويترك ما بيننا من العداوة والخلق المذموم، ويجرى بيننا بعد اليوم المصادقة ، وتتفتح أبواب المحبة والمرافقة ، ولا ينفر أحد منا من صاحبه بل يراعى مودته ويبالغ فى حفظ جانبه .

وجعل الثعلب يقرر هذا المقال ، والديك يتلفت إلى اليمين والشمال، ويحتاط غاية الاحتياط ، ولا يلتفت إلى هذا الهذيان والخياط ، فقال الثعلب : يا أخي، مالك عن سماع كلامى مرتخى ، أنا أبشرك ببشائر عظيمة لم تتفق فى

---

(١) الضأن التى تعيش فى الجبال .

(٢) الحوت .

الأعصر القديمة ، وإنما برزت بها مراسيم مولانا السلطان الجسيمة ، وأراك لا تلتفت إليّ هذا الكلام ، ولا تسر بهذا اللطف العام ، ولا تلتفت إلى ولا تعول عليّ ، وتستشرف على بعد الشيء ، فهلا أخبرتني بما أضمرت ونويت، وتطلعني فيما تتطاول إليه على ما رأيت ؛ حتى أعرف فى أى شيء أنت ، وهل ركنت إلى أخبارى وسكنت .

فقال : أرى عجاجاً ثائراً[١] ، ونقعاً إلى العنان فائراً[٢]، وحيواناً جارياً كأنه البرق سارياً ، ولا عرفت ما هو ؛ ولكنه أجرى من الهوا فقال أبو الحصين وقد نسى المكر والمين : بالله يا أبا نبهان حقق لى هذا الحيوان ، فقال : حيوان رشيق له آذان طوال وخصر دقيق ، لا الخيل تلحقه ولا الريح تسبقه ، فرجفت قوائم الثعلب وطلب المهرب ، فقال أبو المنذر : تلبث يا أبا الحصين واصبر ؛ حتى أحقق رؤيته وأتبين ماهيته ، فإنه يا أبا الحصين يسبق طرف العين ، ويكاد أبا النجم يخلف النجم فى الرجم ، فقال : أخذنى فؤادى، وما هذا وقت التمادى ، ثم أخذ يسلح وولى وهو يصدح بقوله :

لابسُ التاجِ العقيقى لا تَقِفْ فى طريقى
إن يَكُن ذا الوصفَ حقًّا فهو والله السَّلُوقى[٣]

فقال الديك : وإذا كان وقد قلت إن السلطان رسم بالصلح بين سائر الحيوان ، فلا بأس منه عليك فتلبث حتى يجىء ويقبل يديك ، وتعقد بيننا عقود الصداقة ويصير رفيقنا ونصير رفاقه .

فقال : مالى برؤيته حاجة ، فدع عنك المُحَاجَّةَ واللجاجة . فقال : أو ما زعمت يا أبا وثَّاب أن السطان رسم للأعداء والأصحاب أن يسلكوا طرائق

---

(١) الغبار الثائر .

(٢) الصراخ العال المخيف .

(٣) السلوقى : كلب الصيد .

الأصدقاء والأحباب ، فلو خالف المرسوم هذا الكلب لما قابله الملك إلا بالقتل والصلب . قال : لعل هذا المشوم لم يبلغه المرسوم ، ثم ولى هارباً وقصد للخلاص جانباً

وإنما أوردت يا نفيس هذا المثال ؛ لتقيس أحوال من دان لك من هذا الحيوان ، ولا تشقها بعصا واحدة ، واحسب حل كل واحد على حده ، فربما يكون فى هذه البهائم من لا هو بأحوال الصلح عالم ، ولم تبلغه الدعوة ، وإنما إنضاف بسبب رَجْوِهِ ، أو آمن على سبيل التبعية والتقليد ، ولم يطلع على موارد الوعد والوعيد ، ولا وقف على ما وقع من الاتفاق ، ولا يثبت لمصادمة اللقاء وقت التلاقى ، فيصدر منكم حركة تؤدى إلى قلة بركة ، وتستطرد إلى نفرة جفول[1] فيدهمنا هدم ما أسسناه على غفول ، ويقع من الفساد ما لا يمكن تلافيه ، ويضيع نقود جواهر جهدنا وكدنا فيه ، وإذا كانت الدنيا محل العوارض ، والغالب أنه عند مشارفة المقصود يحصل العارض ، والعاقل لا يغفل عن هذا الخطر فعند صفو الليالى يحدث الكدر ، وقد كفاك من ناداك بقوله :

إذا قَرَبَتْ يداك إلى مَرَام ... وقلت تَخوَّلَتْ نفسى مُنَاهَا
فلا تَأمنَ من الدَّهْر اختِلاساً ... بحَوْل فمكره فى ذا تناهى
كجان لم يُصِبْه الشَّوْكُ إلا ... وقد وصَلَتْ يَدَاهُ إلى جَنَاهَا

فالرأى السديد يا أبا سعيد يقتضى أن تمضى الحمامة المطوقة إلى تلك الجموع المفرقة ، وتنادى فى كل نادى بين الحاضر والبادى والرائح والغادي، بحقائق الأمور وتطيب خاطراً لجمهور ، وما هم قادمون عليه ومن هم الواصلون إليه ؛ ليعلموا أنهم فى صفقتهم رابحون ، وأنهم على هدى من ربهم وأنهم مفلحون .

---

(١) الشرود .

فتوجهت الحمامة بهذه النقوش وشهرت النداء فى طوائف الوحوش ، بما هم عليه قادمون ، وأنهم للملك يسار خادمون ، ثم تبعها الوزير ومعه كل أمير وكبير ، من خواص المباشرين والأعيان الملازمين ، وكبراء الأطيار ورؤساء الأخيار ، واستقبلوا ملوك الوحوش والهوام ، ورؤساء السوائم والسوام ، وقابلوا ملتقاهم بالإعزاز والإكرام ، ووعدوهم بكل خير وإحسان، ووصلوا بهم إلى ميدان الأمان ، وحين حل عليهم نظر السلطان؛ قبلوا الأرض ووقفوا فى مقام العرض ، وأدوا من واجب العبودية النفل والفرض ، فأنزل كلا فى مقامه ، بعد أن أحله فى محل إكرامه ، وأفاض عليه خُلَع إحسانه وإنعامه ، وعلت منزلة الوزير ، وتقدم كما تقدم وأُشير ، وصفا لهم الزمان وعاش فى ظل عدلهم كل ضعيف من الحيوان ، وتقلبوا فى رياض الأمانى على بساط الأمان.

وفائدة هذه الحكايات تنبيه أشرف جنس المخلوقات ، وألطف طائفة المكونات وهو نوع الإنسان ، الذى اختصه الله تعالى بأنواع الإحسان ، وأيده بالعقل وأمده بالنقل ، على أنه إذا كان هذا الفعل الجليل يصدر فى التنظير والتمثيل ، من أخس الحيوانات ومالا يعقل من الموجودات ، فلأن يصدر من أُولى النهى وأُولى الفضل والمكارم والعُلى ، أولى وأحْرى ؛ لاسيما من رفع الله فى الدنيا مقداره ، وأعلى على فم الخلائق مناره ، وحكّمه فى عبيده المستضعفين واسترعاه على رعية سامعين مطيعين ، وسلطه على دمائهم وأموالهم ، وبسط يده ولسانه فى رفاهيتهم ونكالهم .

والأصل فى هذا كله : قول من عم عبيده بفضله ، وبقوله اهتدى العالمون ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٣].

آخر الباب السادس والحمد لله رب العالمين وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، آمين .